نسبية القيم في الأغراض الشعرية في العصرين الجاهلي والإسلامي (الرثاء, الهجاء, المديح, الفخر)

طالبة الماجستير: رنا السكري كلية الآداب – جامعة البعث

اشراف الدكتور: جودت ابراهيم

ملخص البحث:

تعدّ القيم ظاهرة بارزة في الشّعر العربيّ إذ نالت اهتماماً كبيراً لدى العديد من النّقّاد والفلاسفة لما لها من أهميّة في تكوين السّلوك الإنساني وتقويمه، فهناك علمٌ كاملٌ يهتم بدراسة القيم.

وقد برز دور الشّعر العربيّ في تصوير القيم التي شكّلت مضمون الثّقافة ومحتواها والجانب المعنويّ والوجدانيّ والاجتماعيّ لدى الإنسان, وقد سعى هذا البحث إلى دراسة نسبيّة القيم في الشّعر الجاهليّ والإسلاميّ ومدى التّفاوت بين تلك القيم, وتناولت الدراسة بعض النصوص عند العديد من شعراء الجاهلية والإسلام ،وبيَّن نسبيّة بعض القيم التي كانت سائدة في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ، ثم توصّل البحث إلى نتائج هدف للوصول إليها وهي الكشف عن نسبيّة القيم التي صوّرها الشّعراء في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ.

الكلمات المفتاحية: النّسبيّة, التفاوت ,القيم, الجاهليّ, الإسلاميّ.

Research Summary:

The relativity of values in poetic purposes in the pre – Islamic and Islamic eras (lament – satire – praise –pride).Fully concerned with the study of values. The role of Arabic poetry has emerged in depicting the values that formed the content of culture its content and the moral emotional and social aspect of man .poetics and the relativity of some values that were prevalent in the pre-Islamic and Islamic eras .then the research reached a goal to reach. Which is to reveal the most important values that characterized each era and the extent of their Relativity in the poetry of poets .

Keywords :Relativity –inequality –values –pre Islamic – Islamic .

المقدمة:

يعدُّ هذا البحث المعنون ب (نسبيّة القيم في الأغراض الشعريّة في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ) من الأبحاث التي تضيف بعض الأفكار فيما يتعلق بمفهوم نسبيّة القيم, فالقيمة تعدّ علماً واسعاً ألّف فيه النّقّاد والفلاسفة علوماً كثيرة وهناك دراسات عديدة تناولت موضوع القيم منها:

القيم الأخلاقية وجماليتها في الشّعر الجاهليّ , القيم الإنسانية في المجتمع الجاهلي, القيم الجماليّة بين الشّعر الجاهليّ وشعر صدر الإسلام.

تحدثت هذه الدراسات عن القيم وتعريفاتها, وعن جماليات النص الأخلاقي لكنها لم تتطرق إلى نسبية القيم واختلاف نظرة الشعراء لهذه القيم.

وهذا البحث حاول تقصي مفهوم التفاوت ونسبيّة القيم في شعر بعض الشعراء في العصر الجاهلي والإسلامي والكشف عن سمات القيم التي اتّسم بها كل عصر, والقيمة المتغيرة والأسباب التي أدت إلى تغيرها.

أهمية البحث:

إن تتبع الدراسات التي تناولت القيم يكشف تأثيرها في السلوك الإنساني وبناء المجتمع, وتكوين الثقافة, ومن خلال هذا البحث يجد المتلقّي أنّ تغير هذه القيم واختلافها أثّر في تكوين الثقافات والمجتمعات الإنسانية, وعلى هذا تتحدد أهمية هذا البحث في إيضاح مدى تفاوت القيم المبثوثة في شعر الشعراء والدوافع التي أدت إلى هذا التفاوت ومعرفة الأعماق النفسية للكلمة التي قالها الشاعر في تلك الآونة.

مشكلة البحث:

مشكلة البحث تكمن في تحديد معنى النسبية والتفاوت في القيمة الأخلاقية التي صورها الشعراء والدوافع التي أثرت في اختلاف النظرة لهذه القيمة في العصرين الجاهلي والإسلامي.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة القيم التي صورها الشعراء في العصرين الجاهلي والإسلامي واختلاف نظرتهم إليها باختلاف المواقف والتغيرات الاجتماعية والنفسية، وتحديد نقاط التشابه والاختلاف في العصر الواحد وفي العصرين ،سواء في شعر الشاعر نفسه ،أم

بين الشعراء ،والكشف عن النسبية في تلك القيم, ومناقشة النسبية في النظرية الأدبية الأخلاقية ،وتوضيح معنى القيمة المطلقة والقيمة النسبية ومصادر الأخلاق في كل من العصرين الجاهلي والإسلامي.

منهجية البحث:

يمكن أن تصنف منهجية البحث في هذه الدراسة تحت لواء المنهج الوصفي المقارن, وهو منهج من المناهج العلمية (ويتلخص في متابعة ظاهرة وملاحظتها، أو حدث ما معتمداً على معلومات نوعية أو كمية في فترة معينة أو خلال فترات زمنية مختلفة بغرض التعرف على شتى جوانب الظاهرة وعلاقتها بغيرها من الظاهرات للوصول لنتائج تساعد في فهم الواقع الراهن).[1]

تعريف النسبية لغةً:

النسبية مأخوذة من مادة (نَ سَ بَ): "النَسْبُ: نَسَبُ القراءات، وهو واحد الأنساب، ابن سيده: النِسبةُ والنَّسبةُ والنسب: القرابة.

وقيل: هو في الآباء خاصةً، وقيل: النِسبة مصدر الانتساب.

والنُّسبةُ: الاسم، وجمع النسب أنساب.

وانتسبَ واستنسبَ: ذَكَرَ نَسَبَهُ.

ونَسَبَهُ ينسُبُهُ ويَنسِبُهُ نسباً: عَزاهُ.

وناسَبهُ: شَرِكَهُ في نسبه.

والنّسيبُ: المناسبُ والجمع نسباء وأنسباء وفلانٌ يناسبُ فلاناً فهو نسيبه أي قريبه.

تنسّبَ أي ادّعى أنّه نسيبك.

ورجلٌ نسيبٌ منسوب: ذو حسبٍ ونسب، وجمعه نسّابون وهو النسّابة.

ونَسَبَ بالنساء ينسُبُ وينسِبُ نسباً ونسيباً ومنسِبةً: شَبَبَ بهنَّ في الشعر وتغزّل.

وهذا الشعر أنسبُ من هذا أي أرقُّ نسيباً.

والنيْسبُ والنيْسبان: الطريق المستقيم الواضح.

وقيل النّيسبُ: ما وُجِدَ من أثر الطريق.

[1] منهجية البحث والتحقيق, جودت إبراهيم, منشورات جامعة البعث,2007, ص335

وفي النوادر: نيْسبُ فلان وفلان نيْسبة: إذا أدبرَ وأقبل بينهما بالنميمة وغيرها"[1] .

تعريف النسبيّة اصطلاحاً:

يمكن الحديث عن النسبيّة بالقول : نسبيّة الحقيقة أو المعرفة أو اللغة وقبل التفصيل بالأمر لا بُدَّ أن نحصر المعاني التي يمكن أن تشملها النسبية.

ووضحها الدكتور مرتضى الحسيني الشيرازي في سلسلة محاضرات ألقاها في الحوزة العلميّة الزينبّة وتمَّ تصنيفها في كتاب اسمه نسبية النصوص والمعرفة الممكن والممتنع.

فقال: "نسبية المعرفة هي نسبية العلم مقابل المعلوم وهو ما يتحقق في عالم الوجود الذهني الذي يكون في قبال عالة الوجود العيني"[2]، أي ما يعرفه الإنسان من ثقافةٍ وعلم.

ونسبية اللغة: "هي نسبية الكواشف والجسور والنواقل التي تربط عالم الوجود العيني بعالم الوجود الذهني، ويُقصَد بالجسور الروابط والعبارات، الإشارات، الرموز، العلامات، وغير ذلك من الدوال ،ممّا يدلُّ على تحقيق صلة بين النفس الإنسانية وبين المفاهيم والمدلولات"[3] .

أي ما تعنيه اللغة من كلام وتواصل ومدلولات وروابط بين الجمل وكيفية تفسير هذا الكلام على نحوٍ مفهوم.

ويمكن أنْ يُحدَّد للنسبية نوعان: خاصّة وعامّة.

وقد أتى على ذكرها الدكتور أحمد الشربيني في تقديم النسبية النظرية العامّة والخاصّة وهذه الدراسة مختصّة بالنسبية في الفيزياء والمعادلات الطبيعية.

وهناك فرق بين النسبية والتفاوت وسنوضح هذا الفرق لأنَّ العديد من الدارسين يخلط بينهما أو يُداخل بين المفهومين فالنسبية لها مفهوم وضّحناه سابقاً والتفاوت له مفهوم سنوضّحه حالياً من خلال تعريفه في اللغة والاصطلاح.

---

[1] لسان العرب, محمد بن مكرم علي جمال الدين أبو الفضل ابن منظور, دار صادر, لبنان/ بيروت ،ط1 ،1968م ،مادة (ن س ب)

[2] نسبية النصوص والمعرفة الممكن والممتنع, تقريرات الشيخ معتصم سيد أحمد – الشيخ الحسين أحمد السيد, سلسلة محاضرات ألقاها آية الله السيد مرتضى الحسيني الشيرازي, دار المحجّة البيضاء, لبنان/ بيروت, ط1, 2012, ص17

[3] نسبية النصوص والمعرفة الممكن والممتنع, تقريرات الشيخ معتصم سيد أحمد – الشيخ الحسين أحمد السيد, ص17

تعريف التفاوت لغةً:

التفاوت مأخوذ من مادة (فَ وَ تَ)

"فَوَتَ: الفَوْتُ: الفواتُ.

فاتني الأمر فَوتاً وفَواتاً: ذهب عني.

وتَفْوَّت الشيء وتَفاوَتَ وتفاوَتاً وتفاوِتاً.

وفي التنزيل العزيز قال تعالى: (ما ترى في خَلْقِ الرحمن من تَفَاوتٍ).

المعنى: ما ترى في خلقه تعالى اختلافاً واضطراباً.

وتفاوت الشيئان أي تَبَاعَدَ ما بينهما.

وهذا الأمر لا يُفتات أي لا يفوت وافتات عليه في الأمر: حكم.

وكلُّ مَنْ أَحدَثَ من دونك شيئاً: فقد فاتك به.

وفلانٌ لا يُفتاتُ عليه: أي لا يعمل شيء دون أمره.

والافتيات: الفراغ.

ويقال: افتات بأمره أي مضى عليه ولم يستشر أحداً.

ورجلٌ فُوْيتٌ: منفردٌ برأيه وكذلك الأنثى.

والفَوْتُ: الخلل والفرجة بين الأصابع والجمع أفوات"[1].

<u>والتفاوت: هو</u> الموازنة أو الوساطة بين شيئين أو بمعنى أوضح كما فسّره الجرجاني في كتاب الوساطة هو الاختلاف والاضطراب داخل الشعر أو النص الشعري فقال في تفاوت شعر أبي نواس:

" لو تأمّلتَ شعر أبي نواس حق التأمّل ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه وعَدَدْتَ منفيه ومختاره لعظّمتَ من قدر صاحبنا ما صغَّرتَ ولأكبَرْتَ من شأنه ما استحقرتَ ولعلمتَ أنَّكَ لا ترى لقديمٍ ولا مُحدِثَ شعراً أعمَّ اختلالاً وأقبح تفاوتاً وأبين اضطراباً..."[2]

فيستنتج القارئ ممّا سبق أنَّ التفاوت هو عبارة عن موازنة أو مقارنة بين شيئين أحدهما رائع وجيد والآخر قبيح وسيّئ.

---

[1] لسان العرب ،ابن منظور ، مادة (فَ وَ تَ)

[2] الوساطة بين المتنبي وخصومه, القاضي الجرجاني,تح وشر: محمّد أبو الفضل إبراهيم ,علي محمّد البجاوي, مطبعة عيسى بابي الحلبي, مصر/ القاهرة , ط1 , 1966 , ص55

والنسبية هي جزء من الشيء المعروض أو كما في الفلسفة بعضٌ من كل ،لينتقل البحث بعد ذلك للحديث عن النسبية في النظرية الأدبية والأخلاقية.

النسبية في النظرية الأدبية والأخلاقية:

إنّ النسبية في الأخلاق كانت جدلاً واسعاً عند كثير من العلماء والفلاسفة "الأدب يعني الفن ،والأخلاق تعبّر عن الدين ،ممّا يدلُّ على الارتباط الوثيق بين الفن والأخلاق ،وهذا الارتباط كان ومازال مثيراً للجدل لما هناك من صلة بين المضمون الفني وقواعد السلوك الأخلاقي ،أو بعبارة أخرى محاولة تقويم الفن على أساس التضحية من فضائل وقد شاع هذا اللون من الالتزام، فأوجبه فلاسفة الأخلاق واعتنى منهم بالدور الهام الذي يؤديه الفن في المجتمع الإنساني ومدى ما يتركه من أثرٍ وجداني وإقناع"[1]، ويمكن القول أنَّ "النظرية الأخلاقية للجمال والأدب تدافع عن نفسها بأنَّ القيم الأخلاقية مجالها علم الأخلاق وليس الفن أو الجمال".[2]

وبالحديث عن الأخلاق فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الأذهان هو القيم بمختلف أشكالها ويمكن جمع أشكال هذه القيم بتسمية واحدة هي القيم الإنسانية.

"ولا شكَّ أنَّ القيم الإنسانية ارتبطت بوجود قوة خفية توظف بمقتضاها تلك القيم لخدمة الإنسان، وإن اختلفت الأمم عبر العصور في تحديد تلك القوة الغيبية، فقد تأثّرَتْ الأمم بالأديان السماوية بمُثُلٍ عُليا مستمدة من التوراة والإنجيل، ولا نستبعد أن يكون العربي الجاهلي تأثَّر من قريبٍ أو بعيدٍ بمثل تلك القيم والمفاهيم المنبثقة من أصل ديني"[3].

فقد أثار موضوع نسبيّة القيم وثباتها جدلاً في الأوساط الأدبيّة ،فالقيم نسبيّة ومتغيّرةعند البعض ،وثابتة عند الآخر ،ومن أبرز القائلين بنسبيّة القيم بعض الفلاسفة اليونان

[1] قراءات في علم الجمال, ج1, محمد عزيز نظمي سالم, مؤسسة شباب الجامعة, مصر/ الإسكندرية, د.ط, 1996,ص4

[2] المرجع السابق,ص27

[3] جدلية القيم في الشعر الجاهلي(رؤية نقدية معاصرة دراسة), جمعة بو بعيو, منشورات اتحاد الكتاب العرب, سوريا/ دمشق, د.ط, 2001,ص25

وأصحاب الحركة السفسطائيّة[1] ،أما أصحاب النظريّة القائلة بثبات القيم ومطلقيّتها فمنهم (سقراط وتلميذه أرسطو)[2].

وبناءً عليه تمّ تصنيف القيم إلى :

1 .قيم مطلقة ،تُطلب لذاتها باعتبارها غاية لا وسيلة ،كالسّعادة مثلاً ،فهي خيرٌ في ذاتها ولذاتها وبذاتها.

2 .قيم نسبيّة :وهي متغيّرة توصل إلى غاياتٍ أخرى ،فالمال مثلاً لا قيمة له إلا من حيث كونه وسيلة لكثير من الأمور المرغوب بها في الحياة[3] .

وهذا البحث سيتناول القيم على أساس النظرية النّسبيّة ،ولعلّ أبرز الأسباب التي دعت إلى القول بنسبيّة القيم :

السبب الأوّل :وينطلق من مرجعيّة ماديّة تحاول تأليه الإنسان والابتعاد به عن وجود قوّة تدبّر أمره، وتسيّر شؤونه .

السبب الثاني :ويتجلّى في الفصل بين العلم والحكمة ،أي بين الوسائل والغايات ،أي جعل هذه الحياة غاية في ذاتها ،وهذا يعني اقتصار الوجود الإنساني على الجانب المادي المحسوس فيه .

السبب الثالث :يقول بإزالة القيم الأخلاقيّة والدّينيّة ويدعو إلى الحداثة من منطلق أن العالم لايمكن أن يتحضّر في ظلّ اعتماد أبنائه على قيم أتت من الماضي السحيق .

السبب الرابع :تطويع نظرية داروين في تطوير الأنواع في مجال الأخلاق ،إذ يروا أنّ لنظريّة التطوّر نتائج نسبيّة ،وإيحاء بأنّ المعايير الأخلاقيّة قد تطوّرت مع تطور المجتمع والنّظم البشريّة ،فيكون التغيّر أساساً للأخلاق مثلما أنّه أساسي للبيولوجيا ،والتغيّر يؤدّي منطقيّاً إلى إنكار أي معيار مطلق .

---

[1] السفسطائيّة :إحدى المدارس الفلسفية التي ظهرت في اليونان ،في القرن الخامس قبل الميلاد ،ولفظة سوفسطائي (sophists) ،كان معناها أقرب مايكون إلى مانعنيه اليوم ب (أستاذ)، ينظر :تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الأول ،برتراند راسل ،تر:د.زكي نجيب محمود ،مراجعة أحمد أمين ،الهيئة المصرية العامة للكتب ،القاهرة ،ص139 .

[2] سقراط فيلسوف وعالم من علماء أثينا عاش في الفترة (470 -399ق.م)كان ينفق وقته في مناقشات ،ويعلّم الفلسفة للشبّان دون أجر ،حوكِم ،وحُكِم عليه بالإعدام .
أرسطو ويسمى ب"أرسطوطاليس" عند الغرب ،ولد في ستاجيرا ثم انتقل إلى أثينا ،من أشهر الفلاسفة اليونان ،عاش في الفترة (384-322ق.م) ،المرجع نفسه ،ص261 بتصرّف .

[3] ينظر :مقدمة في علم الأخلاق ،محمود حمدي زقزق ،دار القلم ،الكويت ،ط3 ،1983 ،ص140 .

والسبب الخامس :ينطلق من مبدأ التحكم في الطبيعة لامعرفتها والتفاعل معها ،وهذا بدوره ما أدّى إلى القول بتغيّر المعايير الأخلاقيّة مثلما تغيّرت العادات البشريّة .[1]

ومن هذا الكلام يتضح أنَّ لكلِّ فردٍ قيماً خاصةً به أو قيماً يفضّلها على غيرها من القيم ،ويجد أنَّها الأفضل وهذا يوضِّح نسبية القيم.

وهذا ماتحدّث عنه **الدكتور. جودت إبراهيم** بقوله:

"إنَّ الأخلاق نسبية، والمعايير الأخلاقية متطورة ومتغيرة، فالإحسان مثلاً قيمة أساسية في سلّم الأخلاق التقليدي، ولا نجد له مكاناً في سلّم الأخلاق الاشتراكي.

والبطل في الجاهلية مرفوض في العرف الإسلامي، كما أنَّ الفرسان المتعطشين للدماء في عصر الفروسية مرفوضون في منطق العصر الحديث .

ويصبح ربط الأدب بالأخلاق في كثير من الأحيان، وكأنَّه يعني ربطه بقيم غير ثابتة، وبالتالي يعني حرمانه من فرصة الخلود التي تعدُّ من أهم مميزات الأدب العظيم.

ويجب الانتباه إلى كلمة أخلاقي، إنّما تُستخدم دائماً بمعناها العام، كما أنَّ الشكلي مَنْ كان منطلقه في النظر إلى الأدب والفن شكلياً، أي من حيث شكله.

وليس الشكلانيّون غير أخلاقيين بالضرورة، وإنّما ارتبطت النظرية الشكلية... باللا أخلاق كون دعاتها الأوائل أمثال: رامبو وفيرلين قد قدّموا أمثلة سيئة للخروج على أخلاق عصرهم"[2] .

تجليات التمايز بين القيم في الجاهلية والإسلام:

يُقصد بالتمايز الفرق أو إبانة الفروقات وقبل الدخول إلى القيم في الأغراض الشعرية يجب معرفة:

أ_ ما هي القيمة؟

ب_ مصادر الأخلاق والقيم في الشعر الجاهلي.

جـ_ مصادر الأخلاق والقيم في الإسلام وعلاقة القيم بالشعر.

---

[1] ينظر :الفلسفة أنواعها ومشاكلها ،هنتر ميد ،ترجمة :فؤاد زكريا ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ،القاهرة ،ط1 ،1969م ،ص270 ،271 .

[2] نظرية الأدب والمتغيرات دراسات, جودت إبراهيم, دار تنوير للتنضيد والطباعة, سوريا/ حمص, ط1, 1996,ص70

ما هي القيمة؟

لغةً: أصلها من الفعل (قام)، " قَامَ قَوْماً وقِياماً وقَوْمَةً: انتصب واقفاً والأمر: اعتدل.

(أقام) بالمكان: لبث فيه واتّخذه وطناً.

تَقَوّمَ الشيءُ: تعدّلَ واستوعبَ وتبينت قيمته.

القَوامُ: العَدْل – (القوام) : قِوام كلِّ شيءٍ: عِمادُهُ ونظامه.

القيمة: قيمةُ الشيء – قدره وقيمة المتاع: ثمنه – ويقال ما لفلان قيمة: ماله ثبات ودوام على الأمر – القيّوم: القائم الحافظ لكل شيء – اسم من أسماء الله الحسنى – القيِّم: السيد.

القيِّمة: الأمة القيِّمة المستقيمة المعتدلة"[1] .

القيم في الاصطلاح :

تعددت تعريفات القيم بحسب تعدد الرؤى والفلسفات التي تنظر إليها ،ويمكننا أن نجمعها في اتجاهين :

الاتجاه الأوّل نظر إلى القيم باعتبارها صفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال والأفعال والأخلاق ،ولا تتغيّر بتغيّر الظروف والملابسات[2] .

أو كونها :صفة عقليّة والتزاماً وجدانيّاً يوجه فكر الإنسان واتجاهاته ومواقفه وسلوكه[3].

فتكون القيم بذلك معنى خلقياً يتطلع إليه الإنسان ويتوجه إليه بكليته ،ويجتهد في الإتيان بأفعاله على مقتضاه[4] .

[1] المعجم الوسيط, مجموعة من الباحثين, مجمع اللغة العربية, مكتبة الشروق الدولية, مصر/ القاهرة,ط4, 2004, ص767- 768, مادة (ق ا م)

[2] ينظر :المعجم الفلسفي ،مجمع اللغة العربية ،الهيئة العامة للمطابع الأميرية ،القاهرة ،1983 ،ص158 .

[3] استنباط القيم في حقل علمي ،د.فتحي ملكاوي ،بحث منشور في كتاب القيم في الظاهرة الاجتماعية ،تحرير :نادية مصطفى ،سيف الدين عبدالفتاح ،دار البشير ،مصر ،ط1 ،2011 ،ص225 .

[4] ينظر :تعددية القيم ،ما مداها وما حدودها ،طه عبدالرحمن ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،مراكش ،ط1 ،2001م ،ص15 .

والاتجاه الثاني عرف القيم بأنها :صفة شخصيّة يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء ،طبقاً للظروف والملابسات .

أو اعتبر أنّها :الاهتمام للشيء ،أو استحسانه ،أو الميل إليه والرغبة فيه ،كونها ذات طابع شخصي ذاتي ،وليس موضوعيّاً[1]

ب – مصادر الأخلاق في الشعر الجاهلي:

أما في العصر الجاهلي فقد كانت القيم اجتماعية وأخلاقية ودينية ،ومهمٌّ جداً الحديث عن العوامل والمصادر التي أسهمت في ظهور هذه الأخلاق ورسوخها في النفوس، فقد حملها الشعراء، وتغنّوا بها في قصائدهم.

وهذه المصادر هي البيئة والقبيلة وطبيعتها الاجتماعية وشخصية الإنسان الجاهلي:

أ- **البيئة:** إنَّ أخلاق الجاهليين وليدة بيئتهم الصحراوية القاسية فقساوة الصحراء وطبيعة مناخها جعلت العربي متجلّداً صابراً فقال مصطفى صادق الرافعي[2]: (شريعة الطبيعة التي أدّبتهم هذا الأدب بل هو شعرها في أخلاقهم)[3]. أي إنَّ الفضيلة والكرم والتسامح والشجاعة مزروعة في روحه.

ومن أمثلة الشجاعة والكرم أنّه عندما يعمُّ البؤس وتبخل السماء بالمطر كان العرب يقدمون النوق ويوزعونها، فالبيئة قد أسهمت في نمو صفة الكرم عند العرب في الجاهليّة كقول عمرو بن قميئة[4] في العصر الجاهليّ :

إنّي مِنَ القَـوْمِ الذِيــنَ إذا أَزِمَ الشِّتاءُ ودوخِلَتْ حجرُه

وَضَعَ المَنِيْحَ وكانَ حظُّهُمُ في المُنْقِيَاتِ يُقِيْمُهَا يُسْرهُ[5]

---

[1] ينظر :المعجم الفلسفي ،مجمع اللغة العربية ،ص158 ،والمعجم الفلسفي ،جميل صليبا ،دار الكتاب اللبناني ،1982م ،ص213 .

[2] مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي :عالم بالأدب ،أصله من طرابلس الشام ،ومولده في بهتيم في مصر ،ووفاته في طنطا (1880-1937م) ،ينظر: وحي القلم ،مصطفى صادق الرافعي ،راجعه واعتنى به د.درويش الجويدي ،ج1 ،المكتبة العصيرية ،بيروت ،ص15 .

[3] تاريخ آداب العرب, مصطفى صادق الرافعي, دار الكتاب العربي, لبنان/ بيروت,ط4, 1994, ص23

[4] عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك الثعلبي البكري النزاري شاعر جاهلي مقدم، نشأ يتيماً ،وخرج مع امرئ القيس في توجهه إلى قيصر فمات في الطريق ،كان واسع الخيال في شعره ،ينظر الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص83 .

[5] ديوان عمر بن قميئة ،تحقيق حسن كامل الصيرفي ،د.ط ،1965م ،ص203 .

ب_ القبيلة: كانت القبيلة بمرتبة الدولة حالياً لها زعيمٌ وأشرافٌ وأعضاءٌ وأفرادٌ وجنودٌ يحمونها ويغزون الآخرين ويدافعون عن شرفها فالقبيلة لها قوانين ،وأنظمة تحكمها ،وتقاليد وأعراف مشهورة بها.

كما أنَّ لكلِّ قبيلةٍ شعراء يمجدونها ويمدحونها في الأسواق ويهجون الأعداء[1]، وكما ذُكِرَ في كتب التاريخ ونقل الرواة الثقات بأنَّ العرب في الجاهلية كانت قبائل متفرقة لا تجتمع إلا لحلف أو شنِّ حربٍ على قبائل أخرى[2].

وكان العربي يفتخر بقبيلته ويسعد بسعادتها ويحزن لحزنها ويثأر لها وهذا ما أكّده عميد الأدب العربي طه حسين[3] بقوله: (الرجل العربي مهما يعظم قدره ويرتفع أمره، فردٌ من قبيلته لا عزَّ له إلا إذا عُزَّتْ ولا كرامة له إلا إذا كَرُمَتْ) [4] .

والأمثلة كثيرة على الاعتزاز بالقبيلة كقول كعب بن زُهير[5] عندما افتخر بنسبه وأهله المعروف عنهم الكرم، وبقبيلته التي زرعت فيه تلك الصفة يقول:[6]

هُمُ الأصلُ منّي حيثُ كنتُ وإنّني من المُزَنيّينَ المُصَفَّينَ بالكَرَمِ

جـ_ شخصية الإنسان العربي:

تميَّزت شخصيّة العربيّ في الجّاهليّة بالشجاعة والكرم والمروءة وإغاثة الملهوف وعمل الخير والصبر على الفقر ،فالصحراء سيطرت على مشاعره فجعلته كريماً وحارساً أميناً ليحمي الجار ويُكرِم الضيوف وكلُّ ذلك يبعث على الشهامة وعزّة النفس التي كان يتمتع بها.

---

[1] ينظر :كتاب الشّعر الجاهلي خصائصه وفنونه ،يحيى الجبوري ،دار مجدلاوي ،عمان،ص47 ،48 .

[2] ينظر : الطريق إلى المدائن ،أحمد عادل كمال ،الشركة الدولية للطباعة ،مدينة 6أكتوبر ،القاهرة ،مصر ،2004م،ص47 .

[3] طه حسين :طه بن حسين بن علي بن سلامة ،الدكتور في الأدب :من كبار المحاضرين ،جدد مناهج ،وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي ،أصيب بالجدري في الثالثة من عمره فكفّ بصره ،بدأ حياته في الأزهر ،ثم بالجامعة المصرية القديمة وهو أول من نال شهادة الدكتوراه منها ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج3،ص231 .

[4] حديث الأربعاء,ج1, طه حسين, دار الكتاب العربي, لبنان/ بيروت,ط1, 1974, ص111

[5] كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني ،أبو المضرّب شاعر عالي الطبقة ،من أهل نجد ،له ديوان شعر ،كان ممن اشتهر في الجاهليّة ،ينظر :الأعلام ،خيرالدين الزركلي ،ج5 ،ص226 .

[6] ديوان زهير بن أبي سلمى, زهير بن أبي سلمى,تح: علي فاعور, دار الكتب العلمية, لبنان/ بيروت, ط3, 2002, ص11

وتغنّى الشّعراء بالكرم ولعلَّ حاتماً الطائيّ خير مثالٍ على الجود والسخاء ،ومن أقواله في الكرم حديثه مع زوجته ماويّة بنت عفزر فقال:[1]

أماويَّ! ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشرَجَتْ نفسٌ وضَاقَ بهـا الصدرُ

أماويَّ! إنَّ المـــــالَ غادٍ ورائحُ ويبقـــــى من المال الأحاديث والذِّكرُ

وعند مجيء الإسلام وانتشاره أصبح للقيم مصدرٌ آخر أعلى وأسمى وزاد القيم الجاهلية النبيلة ثراءً وعزّةً وكرامةً وهذا ما سيتحدّث عنه البحث بالتفصيل في (مصادر القيم والأخلاق في الإسلام وعلاقة القيم بالشعر).

مصادر الأخلاق والقيم في الإسلام وعلاقة القيم بالشعر:

إنّ الأخلاق السّامية هي السّلوك من أجل الحياة الخيّرة وطريقة للتعامل الإنسانيّ ،والأخلاق في نظر الإسلام هي عبارة عن (مجموعة المبادئ والقواعد المنظّمة للسلوك الإنساني التي يحدّدها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقّق الغاية من وجوده في هذا العالم)[2]

مصادر الأخلاق والقيم في الإسلام:

أ_ القرآن الكريم:

هو المصدر الأوّل للقيم والأخلاق ،والآيات في ذلك كثيرة ،قال تعالى: {إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم}[3] ،وقال سبحانه {إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ويعظكم لعلّكم تذكرون }[4] .

إذاً الوحي هو الأساس والمصدر الرئيس في القيم ،وقد تحلّى الرسول الكريم (ص) بأخلاق القرآن الكريم، وألزم نفسه بآداب القرآن .

ب_ السنّة النّبوية الشريفة والأحاديث:

تُعدّ السنّة مصدراً من مصادر القيم الإسلاميّة فكل ما قاله وفعله وقرره الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلّم يُعدّ قيمة لأنَّه حجّة على المسلمين وواجبٌ عليهم اتّباعهُ.

---

[1] ديوان حاتم الطائي, حاتم الطائي, دار صادر, لبنان/ بيروت, د.ط,د.ت ص40

[2] التربية الأخلاقية الإسلاميّة ،مقداد يالجين ،ص75 .

[3] سورة الإسراء ،الآية 9.

[4] سورة النمل ،الآية 90.

فقد جاء في نصّ القرآن الكريم : {وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا عنه واتّقوا الله}[1] ،وقال تعالى :{لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً }[2] .

ولذا حرص الصحابة رضوان الله عليهم . على التّمسّك بآداب النبي (ص) ،وتخلّقوا بالأخلاق الحسنة مستندين إلى ما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ.

وفي عصر ما قبل الإسلام كان الأدب يحتوي على الغزل الفاحش والعفيف والهجاء والرثاء والخمر والفخر والمديح وغيره من الأغراض والفنون الأخرى وجميعها كانت تحمل أخلاقاً متمثلةً بالكَرَم والحِلِم والشجاعة والمروءة ... إلخ.

وجاء الإسلام وتهذَّبَتْ النفوس وقُوِّمَ سلوك الإنسان، فالشعر في صدر الإسلام تحدَّثَ عن تجارب الناس ومواقفهم الحياتية فمدحوا الرسول ودافعوا عنه بألسنتهم ،وتفاخروا بالدعوة الإسلامية وإنجازاتها ،فالدين الإسلامي أضاف للشعر ما يسمى الرسالة الهادفة التي يؤدّيها للمجتمع ويلتزم بها.

القيم في الاغراض الشعرية القديمة بين الجاهلية والإسلام:

وبعد الحديث عن القيم ومعناها ومصادرها وكيف كانت علاقتها بالشعر سيعرض البحث الفرق في القيم بين الجاهلية والإسلام من خلال الأغراض الآتية: الرثاء – الهجاء – المديح – الفخر.

أ .الرثاء:

عرفَ الشّعر العربي أغراضاً كثيرةً ،ويُعَدُّ الرّثاء أبرزها لاتصاله بالوجدان ،وهو "غرضٌ من أغراضِ الشّعر الغنائي ،يعبّر الشّاعر فيه عن مشاعر الحزن واللوعة التي تنتابه لغياب عزيزٍ فُجِعَ بفقده ،أو لكارثةٍ تنزل بأمّةٍ ،أو شعبٍ ،أو دولةٍ "[3].

[1] سورة الحشر ،الآية 7 .

[2] سورة الأحزاب ،الآية 21

[3] المعجم المفصّل في اللغة والأدب ،إميل بديع يعقوب ،د.ميشال عاصي ،،مجلد1 ،دار العلم للملايين ،بيروت ،ص663 .

فقد مجّدَ الشّعراء موتاهم وذكروا آثارهم ومناقبهم ،وقد جعل قدامة بن جعفر[1] الرّثاء قريباً من المدح ،فقال "ليس بين المرثيّة والمدحة فصل ،إلا أن يذكر في اللفظ ما يدلّ على أنه لهالك "[2] ،فالشاعر يعبّر عن التفجّع والحسرة والتلهّف والاستعظام ممّا يذكر في المدح ،لكنّه هنا مبلل بالدموع[3] .

ومن خلال الرّثاء دعا الشعراء الجاهليون إلى الأخذ بالثأر ،فالثأر قيمة اجتماعيّة مهمّة في المجتمع الجاهلي ،حرص الشعراء على الحضّ على الأخذ بالثأر في شعرهم، فعنترة العبسي[4] دعا إلى الأخذ بالثأر عندما قال :[5]

يا قَيسُ إنّ صُدورَنا وَقدت بها نارٌ بأضلعنا تشُبُّ وقُودا

فانْهَضْ لأخْذِ الثأرِ غيْرمُقَصّرٍ حتّى تُبيدَ من العِداةِ عديدَها

فالقصيدة السّابقة هي رثاءٌ لتماضر (أم قيس بن زهير وزوجة الملك زهير بن جذيمة العبسي)،وهو يحرّض قيساً على الأخذ بثأرِ أُمّه ممّن تسبب بهذه الفاجعة لبني عبس ،فبالنسبة لعنترة الأخذ بالثأر قيمة إيجابيّة يحضّ عليها ،ويسعى لتحقيقها .

ومن الشّعراء من أدرك ثأره بالغدر ،ولم يجد عيباً في ذلك .وقد قبّح الجاهليّ الغدر ،" وقد كان الجاهليون إذا غدر رجل وأخفر الذّمّة جعلوا له تمثالاً من طين ،وقالوا ألا إنّ فلاناً غدرَ فالعنوه "[6]، فالغدر قيمة دنيئة رفضها المجتمع الجاهليّ ،إلّا أنَّ هناك من لم يجد عيباً في الغدر عند طلب الثأرِ ،فقيس بن

[1] قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ،أبو الفرج ،كاتب ،من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة ،يضرب به المثل في البلاغة .ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص191.

[2] قدامة بن جعفر ،نقد الشعر ،تحقيق :عبدالمنعم خفاجي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ص118 .

[3] تاريخ آداب العرب ،مصطفى صادق الرافعي ،مكتبة الإيمان ،المنصورة ،مصر ،ص96 .

[4] عنترة بن شدّاد بن عمرو بن معاوية ابن قراد العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ،ومن شعراء الطبقة الأولى من شعراء نجد ،أمه حبشية اسمها زبيبة سرى إليه السواد منها ،كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً ،شهد حرب داحس والغبراء ،وعاش طويلاً ،قتله الأسد الرهيص أو جبّار بن عمرو الطائي ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص91

[5] ديوان عنترة العبسي ،تقديم وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي ،ط1 ،مكتبة القاهرة ،مصر ،ص159 .

[6] أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ،بطرس البستاني ،الهنداوي ،ص54 .

الخطيم فارس الأوس[1] لم يدرك ثأره إلا بالغدر ،وهو لم يجد غضاضة في ذلك بدليل فخره بإدراك ثأره ،فهو يقول :[2]

ثأرْتُ عَديّا والخطيمَ فلمْ أُضِعْ ولايَةَ أشياءٍ جُعِلْتُ إزاءَها

فقيس فارس ،والفرسان شجعان ،والشجاعة من أهمّ ما يعتزّ به الفارس ،والغدر ليس من الشجاعة ،ولا من شيم الفرسان ،وهو غير مقبول ،لكنّ قيساً قبلَه لأنه لم يستطع أخذ ثأره إلا به ،فالأخذ بالثأر برّرَ له الغدر ،فالنّسبيّة الأخلاقيّة مصطلحٌ تتغيّرُ فيه القيم الأخلاقيّة بمرور الوقت ،وفقاً للظروف والبيئة التي يتطوّر فيها الشّخص[3] ،ومن هنا اختلفت نظرة قيس للغدر في هذا الموقف تبعاً لظروفه ودوافعه .

فالأخذ بالثأر قيمة إيجابيّة في المجتمع الجاهلي ،حضّ عليها الشّعراء ،وكانت أشبه بقانون اجتماعي ،لكنّ هناك من عدّها قيمة سلبيّة ودعا إلى وقفها لما يترتّب عليها من مصائب ودمار ،فها هو زهير بن أبي سلمى[4] الشاعر الحكيم يشيّد بالصّلح ويدعو إليه، ويشدّد على عدم نقض العهد ،وعلى الابتعاد عن الغدر فيقول :[5]

فَلا تَكْتُمَنَّ اللهَ ما في نُفوسِكُمْ ليَخْفَى ومَهما يُكْتَمِ اللهُ يَعلَمِ

وَمَا الحَرْبُ إلا ما عَلِمْتُم وَذُقْتُمُ وَمَا هو عنها بالحديثِ المرجَّمِ[6]

متى تَبْعَثوها تبعَثوها ذميمةً وتضرَ إذا أضريتموها فَتُضْرَمِ[1]

[1] قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي ،أبو يزيد شاعر الأوس ،وأحد صناديدها في الجاهليّة ،وإنّ أوّل ماشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما ،وقال في ذلك شعراً ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص205 .

[2] ديوان قيس بن الخطيم ،تحقيق د.ناصر الدين الأسد ،دار صادر ،بيروت ،2009 ،ص43 .

[3] ينظر :الفلسفة أنواعها ومشاكلها ،هنتر ميد ،ص271

[4] زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني من مضر ،حكيم الشعراء في الجاهليّة ،كان له في الشعر ما لم يكن لغيره ،كان أبوه شاعراً ،وخاله شاعراً ،وأخته سلمى شاعرة ،و ولداه كعب وبجير شاعرين ،وأخته الخنساء شاعرة ،كان ينظم القصيدة في شهر ،وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى الحوليّات ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج3 ،ص52 .

[5] ديوان زهير بن أبي سلمى ،حققه حمدو طماس ،دار المعرفة ،بيروت ،ص68 .

[6] الحديث المرجّم ،أي الذي فيه شكّ .

فهو يدعو إلى عدم نقضِ العهد ،ويصوّر قباحة الحرب ،إذ نفّر الناس منها وقبّحها لأنها السّبب في فناء الكثير ممّن شاركوا فيها ،وهي تزرع الحقد بين الناس ،فأحسّ زهير بالأثر السّيّء للحرب فبحث في أسبابها ،وعرض نتائجها ،وحاول إيجاد الحلول المناسبة لها ،مما يدلُّ على إدراكه لدور الشّاعر في المجتمع ،كما يعكس خوفه على أبناء قبيلته ،ورفضه تحوّلهم إلى وقود لتلك الحرب المعروفة النتائج ،وهذا ماشهدت عليه التجارب ،وليس من أحكام الظنون ،فزهير يقبّح الحروب لما لها من نتائج سلبيّة من دمار وفناء للإنسان ،ويرفض الثّأر ،ويحثُّ على التّمسّك بالصّلح ،فالصّلح يضمن العيش بسلام .

إذاً فالأمر مختلف عند زهير بن أبي سلمى الذي عُرِفَ بشاعر السّلام ،فالأخذ بالثأر مرفوض عند زهير بن أبي سلمى .

إذاً الأخذ بالثأر قيمة إيجابيّة عند بعض الشّعراء مثل عنترة وقيس.. ،لكنّها قيمة سلبية عند زهير بن أبي سلمى ،فما هو إيجابي عند عنترة وقيس ،نجده سلبياً عند زهير .

وقد جاء في كتاب (جدليّة القيم) للدكتور بوجمعة بوبعيو "أنّ القيم عند الجاهلي تأخذ مفهومين متناقضين ،فالجاهلي يحمل بذور الخير في داخله من جهة ،لذا نراه يمجّد القيم التي تدلّ على السّمو الأخلاقي والخير ،ومن جهة ثانية نجده يبدّل قيماً بأخرى ليحافظ على وجوده ،أو لأنها لا تتناسب مع ميوله ،أو لعدم قدرته على تطبيقها"[2]، ونجد في هذا الرأي تفسيراًلاختلاف مواقف الشّعراء بالنسبة للأخذ بالثأر ،وتبرير بعضهم للوسائل الدنيئة في سبيل تحقيق غايته.

فقيمة الرّثاء تأخذ طابعاً إيجابيّاً من ناحية ذكر مفاخر الميّت ،والوفاء له ،بينما تأخذ منحىً سلبيّاً من ناحية الدعوة إلى الأخذ بالثأر فمن المعروف أنّ العربي

[1] أضريتموها :من الضرى وهي شدّة الحرب .
[2] ينظر :جدلية القيم في الشعر الجاهلي ،بوجمعة بوبعيو ،اتحاد الكتّاب العرب ،دمشق ،2001م ،ص6 .

يبذل دمه وماله في سبيل قبيلته ،إلا أنّه لا يتردد في استباحة حمى غيره إن تمكّن لتحقيق أهدافه ونزواته[1] .

لكنّ الرّثاء لم يبقَ ثابتاً ،بل تأثّرَ بتعاليم الدّين الإسلامي الجديد ،فقد "حدّد الإسلام وظيفة أخلاقيّة للشّعر ووجّهه وجهة جديدة هي ربطه بالقيم المنبثقة عن القرآن الكريم فجعل الشّعر أداةً لخدمة رسالته "[2] ،فقد ضبط الإسلام قضيّة الأخذ بالثأر ،انطلاقاً من سنّةِ القوانين اللازمة للاقتصاص من القاتل ،والإيمان بالقضاء والقدر ،وقد تغيّرت صورة الرّثاء بشكلٍ ملحوظٍ في عصر صدر الإسلام ،فرثى الشّعراء شخصيّة الرسول محمد(ص) ،وصحبه الكرام ،وأهل بيته ،فشخصيّة الرسول مثلاً تستحقّ الرّثاء لما امتاز به من صفات خاصّة ،ومن أصدق من حسّان بن ثابت[3] في رثاء الرسول (ص) فها هو يقول :[4]

فأصبَحَ مَحْمُودَاً إلى اللهِ رَاجعاً يُبَكِّيْهِ جَفْنُ المُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ[5]

فقد امتاز هذا الرّثاء بالصّدق ،لأنه يعبّر عن الدّرجة الرّفيعة للرسول (ص) ،فقد بلغت منزلته أن حزنت عليه أهل السماوات والأرض ،ويُعدُّ الرّثاء الجماعي أحد أبرز أنماط الرّثاء في عصر صدر الإسلام ،ويتجلّى ذلك في شعر الفتوح ،وما رافقه من رثاء للشّهداء ،وهذا مانجده في رثاء حسّان بن ثابت لشهداء غزوة مؤتة فقال :[6]

فَلَا يُبْعِدَنَّ اللهُ قتلى تَتَابَعُوا بمؤتَةَ مِنْهُم ذُو الجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ

وَزَيدٌ وعبدُاللهِ حينَ تتابَعُوا جَميعاً وأسْبابُ المنيّةِ تَخْطِرُ

[1] ينظر :الشعر وأيام العرب ،عفيف عبدالرحمن ،دار الأندلس ،بيروت ،ص79 .
[2] نظرية الأدب والمتغيرات ،د.جودت إبراهيم ،سوريا ،حمص ،دار تنوير للتنضيد والطباعة ،ص65 .
[3] حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ،أبو الوليد :الصحابي ،شاعر الرسول وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام .عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ،عمي قبيل وفاته ،لم يشهد مع النبي (ص)مشهداً لعلة أصابته ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج2 ،ص175
[4] ديوان حسّان بن ثابت ،شرحه وقدّم له الأستاذ عبد أ.مهنّا ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط2،ص63 .
[5] يبكّيه :يبكي عليه ،المرسلات :أراد الملائكة
[6] ديوان حسّان بن ثابت ،ص108 ،109

هُمْ أَولياءُ اللهِ أنزلَ حُكْمَهُ عليْهِم وفيهِمْ والكِتابُ المُطَهَّرُ

ويلتقي رثاء حسّان في الأبيات السّابقة مع رثاء الجاهليين من حيث البكاء والحزن ،إلا أننا نجده يتمنّى اللحاق بالشهداء علّه يحظى بالجنّة معهم .

فالرّثاء هنا أكثر تهذيباً وإيماناً بالقضاء والقدر مما كان عليه في الجاهليّة ،يحثّ الفرد على التّحلّي بالصّبر ،ولا يخرج عن تعاليم الدّين الإسلامي "فالتغيّر الجوهري لحق الرّثاء طرداً مع التّبدّل الثّقافي في القيم وتبعاً لتبدّل الرّؤية الفكريّة للمبادئ التي توارثها النّاس في الإسلام ،وإن بقي التّصوّر العام للفجيعة متشابهاً ،فالشاعر لم يعد يقلقه المصير ،وإنّما يأمل بحياة أبديّة رغيدةٍ في الآخرة ،وإنّما القلق في عدم الفوز برضوان الله في جنّات النعيم "[1].

بـــ_ الهجاء :

شكّل الهجاء غرضاً مُهمّاً من أغراض الشّعر العربيّ عبر تاريخه فهو "غرض من أغراض الشّعر ،يقوم على تقبيح صورة فردٍ ،أو جماعةٍ ،أو عادةٍ من العادات ،أو مظهر من مظاهر الحياة والوجود ،وهو تعبيرٌ عن احتقار الشاعر للمهجوّ والرّغبة في الحطّ من شأنه والهزء به ومسخه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً "[2].

اتّخذ الهجاء صوراً عديدةً ،مستمدّة من البيئة والعرف السّائد في الجاهليّة ،فالكرم مفخرة لدى العرب ،واللؤم والبخل أقسى ما يُهجى به المرء ،لذلك رأوا في هجاء الأعشى لعلقمة بن علاثة قذفاً فاضحاً، وسبّة شديدة ،جعلت علقمة يبكي حين سمع ذلك الهجاء[3] ،يقول الأعشى[4] في هجائه:[5]

تَبيْتُونَ في المَشْتَى مِلاءَ بُطُونكُم وَجاراتِكُمْ غَرْثى يَبِتْنَ خَمَائِصَا

[1] الرثاء في الجاهليّة والإسلام ،حسين جمعة ،دار معد للنشر والتوزيع ،دمشق ،ط1 ،1991م ،ص37 ،38 .
[2] المعجم المفصّل في اللّغة والأدب ،إميل بديع يعقوب ،ميشال عاصي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،ص1281
[3] ينظر :الشّعر الجاهلي خصائصه وفنونه ،يحيى الجبوري ،ص289.
[4] الأعشى (ت629م) :ميمون بن قيس بن جندل ،من بني قيس بن ثعلبة الوائلي ،أبو بصير ،المعروف بأعشى قيس ،ويقال له أعشى بكر بن وائل ،والأعشى الكبير :من شعراء الطبقة الأولى في الجاهليّة ،وأحد أصحاب المعلقات ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج7 ،341.
[5] ديوان الأعشى ،ص149.

كان هجاء الأعشى لعلقمة قاسياً شديداً فاضحاً ،فقد وصفه وقومه بالبخل ،فهم ينامون بطونهم ملأى وجاراتهم تتضوّرنَ جوعاً ،لقد أسقط عنهم صفة المروءة ،التي تغنّى بها الجاهلي ،فهي القيمة العظيمة التي تشمل صفات الرّجولة والسّيادة .

إنّ هذا النوع من الهجاء الشّديد كان مقبولاً عند الكثير من شعراء الجاهليّة ،ولا سيّما إذا كان في سبيل نصرة القبيلة ،فالشاعر سلاح القبيلة في وجه أعدائها ،الذي يتصدّى لخصومها بلسانه[1] ،إلا أنّ هناك رفضاً بالمقابل يلحظه القارئ عند بعض شعراء الجاهليّة للهجاء المقذع الفاحش "فمنهم من كان يترفّع عن الهجاء ويراه ضعة "[2]،فقد قيل لصخر بن عمر[3] ،عند رثاء أخيه معاوية :اهجُ قتلته،فقال :ما بيننا أجلّ من القذع، ولو لم أكفف نفسي إلا رغبةً عن الخنا لفعلت ،قال :[4]

وَعَـاذِلَةٍ هبّتْ بليـلٍ تلومُني ألا لا تلومِيني كفى اللوْمُ ما بيا

تقولُ ألا تهجو فوارِسَ هـاشِمٍ ومـالي إذا أهجوهُمُ ثُمَّ مَا ليا

أبى الشَّتْمُ أنى قد أصابوا كريمتي وأنْ ليسَ إهداءُ الخنَا مِن شَماليا

رفض صخر أن يهجو بني غطفان وترَفّع عن ذلك صوناً للكرامة ،وحفظاً لأواصر القربى ،فقال إنّ ما بيني وبينهم أقذع من الهجاء ،ولو لم أمسك عن هجائهم إلا صوناً لنفسي عن الخَنا لفعلْت .

[1] ينظر :الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ،ص277.
[2] الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ،ص289.
[3] صخر بن عمر :هو صخر بن عمر بن الحارث بن الشّريد الرّياحي السّلمي ،من بني سُليم ،ابن منصور ،من قيس عيلان :أخو الخنساء الشاعرة ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج3 ،ص201 .
[4] الأغاني ،أبي الفرج الأصفهاني ،تح:د.إحسان عباس ،د.إبراهيم السّعافين ،د.بكر عباس ،دار صادر ،بيروت، ج15 ،ص69.

وها هي الخنساء[1] ترفض أن تهجو شخصاً حتّى تراه ،هكذا ردّت على حسّان بن ثابت عندما طلب منها هجاء قيس بن الخطيم، فرفضت حتى تراه ،وعندما رأته شاهدت رجلاً مهيباً ،فلم تستطع أن تفتري في هجائه[2] ،فالخنساء صادقة في شعرها ،ربّما أدركت وغيرها من الشعراء الذين لم يقولوا كذباً في شعرهم الوظيفة الأخلاقية للشّعر، فالشعر عندها ليس وسيلة للتكسّب ،أو لسلب النّاس فضائلهم ،على عكس الحطيئة الشاعر الشّهير بالهجاء الفاحش الوضيع[3] ،فهو كان يمدح من يعطيه ،ويهجو من يردّه.

"إنّ حقيقة أو بطلان الأحكام الأخلاقيّة ،أو تبريرها ليست مطلقة أو كونيّة ،ولكنّها مرتبطة بتقاليد أو قناعات أو ممارسات مجموعة من الأشخاص"[4]

فالخنساء وصخر ترفّعا عن الهجاء الكاذب ،فلديهما قناعة أو مبرراً لذلك ،أما بعض الشعراء كالأعشى والحطيئة أسرَفا في الهجاء المقذع دون غضاضة ،وأيضاً بسبب دوافع خاصّة بكلٍّ منهما ،قد تكون ماديّة ونفسيّة أيضاً .

كما تعرّض بعض الشعراء لقيمة العمل في هجائهم ،فقد عيّر الأعشى إياداً بعملها في الزراعة ،فقال :[5]

لَسْنَا كَمَنْ جَعَلَتْ أيَادٌ دَارَها تَكْرِيتَ تَنْظُرُ حَبَّهَا أنْ يُحْصَدَا

يقول :نحن لسنا كقوم إياد ينتظرون المواسم كي يحصدوا ،الأعشى لديه نظرة احتقار لهذا العمل ،فالعمل القيّم عنده هو القتال ،ونجد هذه النظرة عند عمرو

[1] الخنساء :تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ،الرّياحيّة السّلمية ،من بني سُليم من قيس عيلان من مضر ،أشهر شواعر العرب ،وأشعرهنّ على الإطلاق ،من أهل نجد عاشت أكثر عمرها في الجاهليّة ،وأدركت الإسلام فأسلمت ،أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية وكانا قد قُتلا في الجاهليّة ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج2 ،ص86 .

[2] الأغاني ،الأصفهاني ،10/3

[3] ينظر :الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ،ص288 .

[4] ينظر :النّسبيّة الأخلاقيّة ،موسوعة ستارنفورد للفلسفة ،تر: مصطفى شلش ،ص6.

[5] ديوان الأعشى ،ص231.

بن كلثوم ،فقد عيّر النعمان بن منذر بأنّ أمّه من أسرة تمتهن الصّياغة ،قال [1]:

لَحَا اللهُ أدْنَانَا إلى اللُّؤْمِ زُلْفَةً وأَلْأَمَنَا خـالَاً وأعجـزنَا أبَـا

وأجْدَرَنا أنْ يَنْفُخَ الكيرَ خالُهُ يَصُوغُ القُروطَ والشُّنُوفَ بيثرِبَا

هنا يهجو الشاعر النعمان ،ويعيّره بعمل أقربائه ،فخال النعمان كان حدّاداً بيثرب ،وهذا يجلب له العار لأنّهم ليسوا أهل حربٍ يقتنِصون أرزاقهم بالقوّة ،فالأعشى وعمر عاشا عيشة القبائل التي تعتمد على الحروب والقتال ،فهما يمجّدان عملهما لأنهما ينالا رزقهما بأطراف القنا والسيوف[2] ،ويرفضا كل ما عدا ذلك .

إنّ العمل بالزراعة والصّناعة والتجارة لم يكنْ عيباً عند أهل الحضر التي امتهنت تلك الأعمال ،وبعض القبائل كقريش المشهورة بالتّجارة ،لكنّه مدعاة للذلّ والهوان عند أهل البادية ،وهنا نجد نسبيّة في النظرة لقيمة العمل التي صوّرها بعض الشعراء في شعرهم "فما هو جميل في مجتمع قد يكون قبيحاً في مجتمع آخر يختلف عن الأوّل في مقوّماته الماديّة "[3].

كان الهجاء الجاهليّ في أكثره فاحشاً ،مقذعاً، وعندما جاء الإسلام اتّخذ موقفاً متحفّظاً من بعض أغراض الشِّعر ،والهجاء كان منها[4] .

"لقد وضع الإسلام حدّاً للزمن الذي يشنُّ فيه الشّاعر الهجوم على خصمه فيسلقه بألسنةٍ حدادٍ بحقّ أو بباطل"[5]. فتحوّل الهجاء القبليّ إلى هجاءٍ دينيّ يدافع عن الدعوة ضدّ المشركين ،كهجاء حسّان بن ثابت ،أو كعب بن زهير

[1] ديوان عمرو بن كلثوم ،ص25 .
[2] ينظر :الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ،ص77 .
[3] التطور والنسبية الأخلاقية ،ص16 .
[4] الهجاء في الجاهليّة حتى نهاية العصر الأموي نظرة في طبيعة الفن وتراوحه بين القبيلة والإسلام والسياسة ،د.عبدالعزيز بن محمد الخويطي ،ص181 .
[5] المرجع نفسه ،ص192 ،193 .

،وعبدالله بن رواحة ،الذين هجوا المشركين ،ودافعوا عن الدعوة الإسلاميّة ،لكنّ هجاءهم لم يكن فاحشاً ،فالدين الإسلامي قوّم شعر حسّان بن ثابت ،بعد أن كان فاحشاً مقذعاً[1].

لكنّ الهجاء الفاحش لم يتوقّف في العصر الإسلامي ،فقد ظلّ هجاء بعض الشعراء فاحشاً ،وكان امتداداً للهجاء الجاهليّ ،حتّى بعد إسلامهم ،مثل الشاعر النجاشي[2] ،فهو يهجو تميم بن أبي مقبل فيقول :[3]

قَبيلَةٌ لا يَغْدِرُونَ بذِمَّةٍ ولا يَظْلمُونَ النَّاسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

فهو يقول للشاعر بأنَّك من قبيلةٍ لاتغدر ،ولاتظلم إذاً فهم أوفياء ،هذه الصفة كانت سبباً في هجاء النجاشي لتميم ،لكنّ الوفاء قيمة سامية تغنّى بها الشّعراء في الجاهليّة والإسلام ،فزهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي يقول :[4]

وَإِمَّا أنْ يَقولُوا قَد وَفَيْنَا بِذِمَّتِنَا فَعَادَتُنَا الوَفاءُ

تتوضّح النسبيّة في النّظرة إلى قيمة الوفاء ،فهي عند زهير سامية يفخر بها الجاهلي وهي من شيمه ،وعند النجاشي قيمة سلبيّة يعيّر بها من امتلكها ،وفي العصر الإسلامي قيمة إيجابيّة أمَر بها الإسلام ،وحضَّ عليها {وَأَوْفُوا بالعَهدِ إنَّ العهدَ كانَ مَسؤُولاً}[5].

[1] ينظر :الهجاء والهجاؤون في الجاهليّة ،د.محمد حسين ،مكتبة الآداب ،الجماميز ،مصر ،ص175 ،176 .
[2] النجاشي :قيس بن عمرو بن مالك ،من بني الحارث بن كعب ،من كهلان ،شاعر هجّاء مخضرم ،اشتهر في الجاهلية والإسلام ،أصله من نجران باليمن ،انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة ،وهجا أهلها .ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص207 .
[3] ديوان النجاشي ،ص52 .
[4] ديوان زهير بن أبي سلمى ،ص13 .
[5] سورة الأسراء ،الآية (34)

وأيضاً الشاعر قريط بن أنيف[1] ،اعتنق الإسلام لكنّه لم يتمثّل القيم الإسلاميّة ،فهو يقول في هجائه لقومه :[2]

لكنَّ قَوْمي وإنْ كانُوا ذَوي عَدَدٍ لَيْسوا من الشَّرِّ في شيءٍ وإنْ هانَا

يَجزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهْلِ الظُّلْمِ مغفِرَةً وَمِنْ إسَاءَةِ أهلِ السُّوءِ إحْسَانَا

كأنَّ ربُّكَ لمْ يَخلُقْ لِخَشْيَتِهِ سِواهُمْ من جميعِ النَّاسِ إنْسَانَا

فهو يعيّر قومه بحلمهم وإحسانهم ،ويصفهم بالجبن ،لأنهم لا يمتلكون الحماسة على الرّغم من كثرة عددهم، وقد بلغ بهم الجبن فسامحوا من ظلمهم وأحسنوا إلى من أساء إليهم ،فهو يأخذ عليهم مسامحتهم ويقول :كأنَّ الله لم يخلق قوم لخشيته إلا قومه ،فهو يعيّرهم بخُلُقٍ أمر الإسلام به ،وهو الصّفح والإحسان ،وكان عليه أن يلتزم هذا الخُلق ويمدحه ،لكنّه فعل عكس ذلك ،إنَّ دافعه ورغبته في نصرة قومه له جعلته يصوّر القيمة الحسنة تصويراً سلبياً ،إذاً القيمة عنده متغيّرة بتغيُّر الموقف والدّافع ،فدافعه جعلها سلبيّة على عكس ماهي عليه في المجتمع الإسلامي .

إذاً من مظاهر النسبيّة في فن الهجاء ،مخالفة القيم السَّائدة في المجتمعين الجاهلي والإسلامي عند بعض الشعراء ،فكلُّ شاعرٍ صوَّر القيمة من وجهة نظر خاصّة مدفوعاً بدوافع مختلفة ،كما أنَّ الهجاء لم يكن جريمة يعاقب عليها المجتمع الجاهلي ،بل كان من أهمّ وسائل الدِّفاع عن القبيلة ،أما في المجتمع الإسلامي فهو غير مرغوب فيه، ويُعدُّ جريمة يُعاقب عليها إذا كان فاحشاً مُقذعاً ،وهنا نجد نسبيَّة في النظرة إلى هذا الفنّ بين المجتمعين الجاهلي والإسلامي .

[1] قريط بن أنيف العنبري التميمي ،شاعر جاهلي ،في حياته غموض ،انفرد (معمر بن المثنى)برواية خبر عنه ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص195 .

[2] شرح ديوان الحماسة ،ص21 .

جـ_ المديح:

هو غرضٌ أساسيٌّ من أغراض الشّعر العربي، يعبّر عن الإعجاب بالممدوح وصفاته ،فهو" في الأصل تعبيرٌ عن إعجاب المادح بصفات مثاليّة ،ومزايا إنسانيّة رفيعة يتحلّى بها شخص من الأشخاص ،أو تتجلّى في مآثر قومٍ ،أو في مآتي أمةٍ من الأمم ،وشعبٍ من الشعوب ،وأفضل المدح ما صدرَ عن صدق عاطفةٍ ،وحقيقة واقعة ،لايكذب فيها الشاعر ،ولايبالغ طمعاً بكسبٍ يناله ،ومكانةٍ يسعى إليها ".[1]

فمن الشعراء من كان مديحه صادقاً ،لاتكلُّف فيه ولاتملُّق ،لا يستجدي العطايا ،وهذا المديح الصّادق من أفضل الشّعر ،وقد جعل النقّاد صدق الشّعر ،وعزّة النّفس مقياساً من مقاييسهم في تقديم الشعراء ،لهذه الأسباب قدَّمَ النقّاد عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي على غيره من الشعراء، فقد ورد في كتاب جمهرة أشعار العرب أنّه " من قدماء الشّعراء ،وأعزّهم نفساً ،وأكثرهم امتناعاً ،وأجودَهم واحدة" [2].

ومن الشُّعراء الذين عُرِفوا بصدقهم في الشّعر ،الشاعر الجاهليّ زهير بن أبي سُلمى ،لقد شهد له بذلك الكثيرون ،فقد رُوي أنَّ الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال : "لا يقول إلا ما يعرف ،ولا يمتدح أحداً إلا بما فيه"[3] ،ومن ذلك ما قاله في مديح الحارث بن عوف وهرم بن سنان لإعجابه بما فعلاه ،إذ أنقذا قبيلتي (داحس والغبراء) من البلاء الذي حلّ بهما، وحملا على عاتقيهما ديّات القتلى على مدى ثلاث سنوات ،يقول :[4]

يَمِيْناً لَنِعْمَ السَّـيِّدانِ وُجِـدْتُما على كلِّ حـالٍ من سَحيلٍ وَمُبرَمِ[5]

تَدارَكْتُما عَبْســاً وذُبيانَ بَعدَما تَفانَوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ[6]

وَقَدْ قُلْتُمَا إنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ واسعاً بمالٍ ومَعـروفٍ مـن القَولِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحْتُمَا منها على خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعيدينَ فيهما من عُقُـوقٍ وَمَأثَمِ

عَظيْمَينِ في عُلْيَـا مَعَدٍّ هُديْتُما وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزَاً مِنَ المجدِ يَعْظُمِ

---

[1] المعجم المفصّل في اللغة والأدب ،د.إميل بديع يعقوب ،د.ميشال عاصي ،ص1133 .

[2] جمهرة أشعار العرب /محمد بن أبي الخطاب القرشيّ / ت الهاشمي ،ص60 .

[3] رجال المعلّقات العشر ،مصطفى الغلابيني ،المكتبة الشاملة ،بيروت ،ص30

[4] ديوان زهير بن أبي سلمى ،ص66 ،67 .

[5] السحيل :المعقود على قوة واحدة والمفتول عليها ،المبرم :المعقود على قوتين والمفتول عليهما .

[6] عطر منشم :عطّارة في الجاهلية يُضرب بها المثل في التّطير والتشاؤم .

ففي الأبيات السابقة يمدح زهير (هرم بن سنان والحارث بن عوف)،ويقسم أنهما استوفيا صفات الشّرف ،فهما نعم السّيدان ،لما تحملا من ديّات القتلى من أجل الصّلح ،فقد أوقفا الدماء بعدما أفنت رجال القبيلتين، وفاح عطر الشؤم ،عطر الموت من شدّة الحرب ،وكثرة القتلى ،فهو يمدحهم بالصفات العظيمة بسبب فعلهما العظيم الذي بسببه تمّ الصّلح .

لقد كان مدحه صادقاً ،رغم أنه ربح مالاً بسبب هذا المديح ،لكنّ رصيده المعنوي أكبر بكثير لأنّ شعره لم يكن لغرض التكسُّب بل تقديراً وإعجاباً بكرم الشخصين[1] .

عظّم الشاعر في هذا المديح قيمة الكرم ،وصوّرها تصويراً صادقاً بعيداً عن التكلّف والنفاق ،فالكرم قيمة مجّدها المجتمع الجاهلي ،وتغنّى بها الشعراء ،وشاعرنا كان ملتزماً أخلاقيّاً في تصويره لهذه القيمة ،فهو لايمدح أحداً إلا بما فيه ،فجاء شعره معبّراً عن إيمانه بالقيم الأخلاقية الحميدة التي اكتسبها ،وهذا الكلام إن كان ينطبق على شعر زهير فليس بالضرورة أن ينطبق على شعر غيره "الإنسان ليس طبعة نسخ الأصل من الإنسان الآخر ،بل لكلِّ فردٍ خصائصه التكوينيّة ،وكذلك فإنّ البيئة مع أنّها تكوّن الفرد، ويكوِّن المجتمع أخلاقه ،فإنَّ ردّ الفعل للفرد مختلف من شخص لآخر "[2] ،فها هو النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي الذي اشتُهِر بتكسُّبه من الشّعر ، كان شعره بعيداً عن الصّدق ،مُتكلِّفاً ،مُتملِّقاً يستجدي العطايا والهبات من الملوك فقام بمدحهم بصفات غير موجودة فيهم إمّا رغبةً بعطاياهم ،أو خوفاً من بطشهم ،لم يهتم بالقيم الأخلاقيّة، ولم يجد في التملّق عيباً ،وهذا كان سبباً في دنوّ منزلته ،قال عنه ابن قتيبة[3] "كان شريفاً فغضَّ منه الشّعر "[4]، ونجد ذلك في مدحه لملوك

[1] ينظر :التكسّب بالقصيدة العربيّة ـقراءات نقديّة ،صبحية شبر ،المثقف ،العدد 5791 .

[2] التطور والنسبية الأخلاقيّة ،د.حسام محي الدين الألوسي ،ص124.

[3] ابن قتيبة :عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،أبومحمد ،من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ،ولد ببغداد وسكن الكوفة ،ثم ولي قضاء الدينور مدة ،فنسب إليها ،وتوفي ببغداد.ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج4 ،ص137.

[4] الشعر والشعراء ،ابن قتيبة ،تح وشرح :أحمد محمد شاكر ،ج1 ،دار المعارف القاهرة ،ص164 .

الغساسنة والمناذرة ،واعتذاره من ملك المناذرة ،كان اعتذاره رغبةً في إنقاذ نفسه من بطش النعمان فمدحه بصفاتٍ لم تكن موجودة فيه ،وبالغ في مديحه من أجل التكسُّب أيضاً ،وهذه الظاهرة لم تكن مقبولة في العصر الجاهلي حيث الاعتزاز بالصدق ،والمدح بصفات حقيقيّة موجودة في الممدوح وليست مدعاة[1] ،ومما قاله :[2]

أتاني أَبَيْتَ اللَّعْنَة أنّك لمتني وتلك التي أهتمُّ فيها وأنصَبُ[3]

حَلَفْتُ فلمْ أترُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهبُ

ألمْ ترَ أنَّ اللهَ أعْطاكَ سُورَةً ترى كلَّ مَلِكٍ ،دُونَها يتذبذبُ

فإنّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبُ إذا طَلَعْتَ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

يستعطف النابغة النعمان بن المنذر بإظهار خوفه وقلقه من عتب النعمان وغضبه عليه، ويقسم له حتى لم يترك له بقسمه سبيلاً للشكّ في أمره ،ثم يمدحه ويبيّن له مكانته التي تعلو فوق كلّ الملوك ،فهو كالشمس التي إذا ظهرت توارت كلّ الكواكب .

لم يكن مدح النابغة للنعمان صادقاً ،كان همّه إرضاء ممدوحه فقبل أن يمدحه بصفات غير موجودة فيه بدافع الخوف والرغبة بالصّفح عنه ،لذلك ابتعد شعره عن الصدق ،فدافعه المادي هو من يحدد التزامه بقيمة الصّدق في شعره ،"يقول الناقد الروسي بيلنسكي : المتطلبات الماديّة هي أساس النشاط الأخلاقي"[4]

إنّ الشعر إبداع وفنّ ولديه وظيفة أخلاقيّة ،ومع أنّ أكثر النّقّاد العرب القدماء أعفوا الأدب من الالتزامات الأخلاقية ،لكننا نجد نقّاداً آخرين أكّدوا الجانب الأخلاقي المباشر في الشعر ،فالجاحظ لاحظ أنّ دور الشّعراء قد انحطّ عندما

[1] ينظر :التّكسب بالقصيدة العربية قراءات نقدية ،صبحية شبر ،

[2] ديوان النابغة الذبياني ،تح وشرح :كرم البستاني ،دار صادر ،بيروت ،ص17 ،18 .

[3] أبيت اللعنة :تحية جاهلية ،،النصب :التعب

[4] التطور والنسبية الأخلاقية ،ص29 .

أخذوا يتكسّبون بالشعر[1]، وقد التزم بعض الشعراء بالوظيفة الأخلاقية في الشعر مثل زهير بن أبي سلمى ،ولم يلتزم بها آخرون مثل النابغة الذبياني ،فالنسبيّة موجودة في شعرهما من خلال التزام زهير قيمة الصدق في مديحه (للهرم والحارث)، وعدم التزام النابغة لهذه القيمة في مدح النعمان بن المنذر.

"وعندما جاء الإسلام أخذ المديح صورة جديدة تمثّلت في مدح الرسول عليه الصلاة والسّلام ،وكان من أبرز الشعراء حسّان بن ثابت ،عبدالله بن رواحة ،كعب بن مالك، فقد اتخذهم الرسول (ص) للذود عن العقيدة ،وشجعهم ،وأثابهم ،واستنشدهم "[2] ،ومن شعرهم في مدح النبي محمد عليه الصلاة والسلام قول عبدالله بن رواحة :[3]

لَوْ لَمْ تَكُنْ فيْهِ آياتٌ مُبيَّنَةٌ كانتْ بَديْهَتُهُ تُنْبيكَ بالخبَرِ

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حسنٍ قَفَوْتَ عيسى بإذْنِ اللهِ والقَدَرِ

فالشاعر يمدح النبي (ص) لما فيه من أخلاق كريمة ،فهو يمجّد هذا الخُلُق من خلال شعره ،وهو مديحٌ صادقٌ ،لأن النبي كان يتحلّى بأخلاقٍ كريمةٍ ،ومشهودٌ له بها في الجاهليّة وبعد الإسلام ،قال تعالى: {وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم }[4] ،فجاءَ مديحه صادقاً خالٍ من التّكلّف والمبالغة .

لقد أصبحَ المديح شعراً ملتزماً بقضيّة الدّعوة ،ومدح الرّسول (ص) ،هدفه إعلاء قيم الرّسالة السّماويّة ،كما حافظ على القيم والمبادئ التي لاتتعارض مع الإسلام ،وأضاف الدّين الإسلاميّ إليه سمات دينيّة كالتّقوى ،والإيمان الصّادق ،والعدل بين الرّعيّة، وأداء الفرائض ،وما إلى ذلك من الصّفات التي حرص الشّعراء المادحون على إضفائها على ممدوحيهم .[5]

[1] ينظر :نظرية الشعر العربي ،جودت إبراهيم ،ص39 .
[2] العمدة ،ابن رشيق القيرواني ،تح :عبدالواحد شعلان ،القاهرة (12/1)
[3] ديوان عبد الله بن رواحة ،ص160 .
[4] سورة القلم ،الآية 4
[5] ينظر :الأماني في الأدب الإسلامي ،أ.د.ابتسام الصفار ،دار المناهج ،عمان ،ص221.

ومن قصائد المديح النّبوي لاميّة كعب بن زهير [1] ،قال:[2]

إنَّ الرّسولَ لَسيفٌ يُسْتَضـاءُ بـهِ مُهَنَّدٌ من سيُوفِ اللهِ مَسلُولِ

في عُصْبَةٍ من قُريشٍ قالَ قائلُهـم بِبَطْنِ مَكَّةَ ،لمّا أسْلَموا :زُولوا[3]

زالوا ،فما زالَ أنْكَاسٌ ،ولا كُشُفٌ، عند اللّقاءِ ،ولامِيلٌ معازيلُ[4]

شُمُّ العَرانينَ ،أبطالٌ ،لُبوسُـهُمُ من نَسْجِ داودَ ،في الهيجا سرابيلُ[5]

مدحَ كعب بن زهير الرسول عليه الصّلاة والسّلام مَدْحاً صادِقاً ،فهو النُّورُ الذي بعثه الله ليظهر الحقّ ثم جعله في إطارِ جماعته ،فهو النّبي سيفٌ سلّه الله على الكافرين، وحوله المؤمنون الذين هجروا ديارهم وأهليهم ،فهذا مديحٌ لمكانة ونبوّة الرّسول (ص)، إنّ "كلّ ما وافق الحقّ فهو حسنٌ ،ويندرج ضمن الحقّ كلّ شعر إنساني تغنّى به الشعراء بالمثل والأخلاق العُليا "[6].

نستنتج مما سبق أنّ قيمة المدح في العصر الإسلامي بلغت مرتبة "عالية "جداً تمثّلت بمدح النبي عليه الصّلاة والسّلام ،وصحابته الكِرام وتمجيد انتصاراتهم على المشركين، والالتزام بالصدق ،والبعد عن المغالاة والنّفاق .

د- الفخر:

من أهمّ الأغراض الشّعرية عند العرب ،وهو مجالٌ خصبٌ لتصوير بطولاتهم وشجاعتهم وتمجيد قيمهم وعاداتهم ، "الفخر تعبيرٌ عن اعتزاز الإنسان بفضائله ،واعتداده بمآثر قومه، وشمائل مجتمعه ،وتاريخ وطنه "[7].

ومن أهمِّ ما فخر به الشاعر الجاهليّ ،النّسب فهو المعيار المهمّ للشّجاعة والبطولة ،والنّسب للقبيلة هو القوميّة ورمز المجتمع السّياسي في البادية [1].

---

[1] كعب بن زهير :هو الصحابي كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني ،من أهل نجد ،أحد فحول الشعراء المخضرمين المقدمين ،ينسب إلى مزنية أحد القبائل المضرية ينظر :الأعلام ،ج5 ،ص226.

[2] ديوان كعب بن زهير ،حققه وشرحه :علي فاعور ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ص67 .

[3] العصبة :الجماعة ،زولوا :هاجروا من مكة إلى المدينة .

[4] الأنكاس :الضعيف الجبان ،الميل :واحده أميل ،وهو من لا سيف له ،المعازيل :معزول ،وهو من لا سلاح له .

[5] شمّ العرانين :كناية عن الأنفة والإباء ،سرابيل :دروع .

[6] كتاب الأمالي في الأدب الإسلامي ،ابتسام مرهون الصفار ،ص219

[7] المعجم المفضّل ،ص919 .

ومن صور الاعتزاز والفخر بالنّسب ما قاله الشاعر الجاهليُّ عمرو بن كلثوم في معلّقته [2]:

وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لنا حُصُونَ المجدِ دِينا

وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً والخيْرَ منهُ زُهيراً نِعْمَ ذخرُ الذَّاخرينا

وَعَتَّاباً وكُلثوماً جَميعاً بِهِمْ نِلْنا تُراثَ الأكرَمينا

وَمِنَّا قبلَهُ السَّاعي كُلَيْبٌ فأيُّ المجدِ إلّا قَدْ وَلينَا

فهو يفخر بنسبه لتغلب ،وبأبطالها الذين خلّد التّاريخ أمجادهم ،فهو سليل الملوك الأبطال ،فالنسب عند عمرو بن كلثوم هو معيار الشجاعة والبطولة .

ومن صور الولاء المطلق للقبيلة والتّعصُّب لها ما قاله الشاعر الجاهلي دريد بن الصمّة[3] :[4]

وَمَا أنَا إلّا مِن غَزيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشَدْ غَزِيَّة أَرْشُدِ

فهو مع قبيلته على أيّ حال خيراً كان أم شرّاً ،حتى لو تعارضت قناعاته مع قناعة قبيلته ،فهو في النهاية يتبنّى رأيها ،فهو صورةٌ للشاعرِ المتعصّب لقبيلته تعصّباً كاملاً.

وكان المجتمع الجاهلي مجتمعاً متعصّباً قبليّاً بصفةٍ عامةٍ ،لكن هذا لايمنع وجود حركات تمرُّد على هذا التّعصب القبلي ،فهناك من تمرّد على القبيلة ،وثار على نظامها وعاداتها وقوانينها الجائرة كالتمييز العرقي والاجتماعي ،فرفض العيش في ظلم القبيلة، ومنهم الشعراء الصعاليك الذين رفضوا الظلم الواقع عليهم لأسباب لا يدَ لهم فيها كفقرهم ،أو لونهم ،وبعضهم رفض الظلم

[1] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،جواد علي ،ج4 ،ص314

[2] ديوان عمرو بن كلثوم ،ص80 ،81.

[3] دريد بن الصمّة الجشمي البكري ،من هوازن ،شجاع ،من الأبطال، الشعراء ،المعمرين في الجاهلية ،كان سيّد بني جشم وفارسهم وقائدهم ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج2 ،ص339 .

[4] ديوان دريد بن الصمّة ،تحقيق :د.عمر عبدالرسول ،دار المعارف ،القاهرة،ص62.

الواقع على غيرهم ،فعروة بن الورد كان غنيّاً من سادة القوم ،لكنّه ثار على القبيلة نصرةً للفقراء والضعفاء ،لم يهتم لنظام القبيلة وعاداتها ،فمعيار الشجاعة لديه نصرة المظلومين ،وليس النّسب والولاء للقبيلة .

فهو يفخر بالمبدأ الذّي ثار على قبيلته من أجله ،فهو استبدل الانتساب للقبيلة بالانتساب إلى الإخوان الضّعفاء ، فعروة بن الورد[1] يقول:[2]

فَلا أتركُ الإخوانَ ما عشتُ للرّدى كما أنّهُ لايتركُ الماءَ شارِبُهْ

ويقول أيضاً :[3]

إنّي امرؤ عافي إنائي شركـةً وأنتَ امرؤ عـافي إنائَكَ واحدُ

أقسِّمُ جِسْمِي في جسومٍ كثيرة وأحسُو قِراحَ الماءِ ،والماءُ باردُ

فهو يخفف من فقر وضعف إخوانه بمشاركتهم آلامهم والسّعي إلى تخفيفها بكل ما يستطيع .

لقد اختلفت النظرة إلى الولاء للقبيلة فقد عدّها دريد قبلته الوحيدة ،وكانت القبيلة عند عمرو بن كلثوم موضع فخره العظيم ،أمّا عند عروة بن الورد فلا مكان للقبيلة الظالمة، والولاء عنده للحق ولنصرة المظلومين فقط .

وفي شعر عنترة العبسي موقف متناقض بالنسبة للولاء للقبيلة والنّسب ،فقد كان عنترة منبوذاً في قبيلته ،لكنه لم يترك قبيلته كالصعاليك ،بل عاش فيها ،ودافع عنها ،لكنّه رفض اعتبار النّسب معياراً للشجاعة لأنه عانى من رفض والده الاعتراف به لأنه هجين "والهجين لفظٌ يُنعت به من كان أبوه خيراً من أمّه نسباً

[1] عروة بن الورد بن زيد العبسي ،من غطفان :من شعراء الجاهليّة وفرسانها وأجوادها .كان يلقّب بعروة الصعاليك ،لجمعه إياهم ،وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ،الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج4 ،ص227 .

[2] ديوان عروة بن الورد ،شرح ابن السكّيت ،تحقيق :عبدالمعين الملوحي ،مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،ص29 .

[3] المصدر السابق،ص52.

في عرف الجاهليين "[1]، فهو ابن سيّدٍ من سادات عبس ،وأصل أمّه هو الذي حرمه شرف النّسب ، "لذلك لم تكن صورة الفارس في شعره هي صورة بطل بين مجموعةٍ تساويه في تجسيدها للبطولة ،بل صورة البطل الفرد الذي يحلُّ محلّ القبيلة المهزومة ليحقق هذا النصر الذي تسعى إليه "[2] ،فهو الفارس الذي ظُلِم من أهله وقبيلته ،وقد عانى من عقدة اللون بسبب تعيير قومه له بلونه الأسود ،يقول الدكتور عبده بديوي ،"ونحن نعتقد إنّ حافز اللون كان وراء تحوّل هام في القصيدة العربيّة وهو الانتقال من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد ،ذلك لأنه كان في حاجة إلى لفت الأنظار إليه "[3] ،لذلك يصوّر عنترة نفسه بالمدافع الوحيد عن القبيلة بقوله :[4]

أنَا الحِصْنُ المَشيْدُ لآلِ عَبْسٍ إذا ما شادَتِ الأَبْطالُ حِصْنا

ويقول أيضاً :[5]

وَما ردَّ الأعِنَّةَ غيرُ عَبْدٍ وَنارُ الحرْبِ تشْتَعِلُ اشتعالا

يتحدّث عن نفسه فيقول أنَّ هذا العبد الأسود هو الوحيد الذي يردّ الخطر عن القبيلة ،ويدافع عنها ويحميها من الخطر ،فهو يقلل من قيمة أبناء قبيلته .

وفي أبيات أخرى يقلل من أهميّة النّسب لأبيه وأمه فيقول :[6]

جوادي نِسْبتي وأَبي وأُمّي حُسامي والسِّنان إذا انتسَبْنا

فنسبه الرّفيع هو الجواد والسَّيف والرّمح ،ويقول أيضاً :[7]

[1] الانتماء في الشّعر الجاهلي ،فاروق إسليم ،منشورات اتحاد الكتّاب العرب ،1998م ،ص164 .
[2] الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام ،فؤاد مرعي ،ص41
[3] الشعراء السّود ،د.عبده بديوي ،ص39 .
[4] ديوان عنترة بن شدّاد ،ص236 .
[5] المصدر السابق ،ص213 .
[6] المصدر السابق ،ص236 .
[7] المصدر السابق ،ص241 .

ومَا عابَ الزَّمان عليَّ لَوني ولا حَطَّ السَّـوادُ رفيعَ قَـدْري

إذا ذُكِرَ الفَخارُ بأرضِ قَومٍ فَضَرْبُ السَّيفِ في الهَيجاء فَخري

فسواد لونه لم يحطّ من قدره الرّفيع ،فالرّفعة تكون بالشجاعة والقوّة في الحرب ،وهذا مصدر الفخر ،وليس النّسب للقبيلة ،ويقول أيضاً :[1]

لئنْ يَعِيبوا سَوَادي فهو لي نسَبٌ يَوْمَ النِّزالِ إذا ما فاتني النَّسَبُ

وهنا يردُّ على من عيّره بلونه ،ويؤكّد أنّ لونه الأسود هو النّسب الذي يعتزُّ به ،إنّ فخره بلونه الأسود ،وقوله أنّ نسبه للونه وليس لأبيه كان بسبب عقدة اللّون التي عانى منها حتى بعد انتزاعه لحريّته[2] ،فقد عيّرته بسواده قبيلته وغيرها من العرب ،وقد قال في ردّه على كثرة تعيير العرب له بسبب لونه :[3]

لَئنْ أَكُ أسْوَداً فالمسكُ لوْني وما بِسـوادِ جِلْدي من دواءِ

ولكن تَبعُدُ الفَحشـاءُ عنِّـي كَبُعْدِ الأرْضِ عن جوِّ السّماءِ

هنا يعترف بأنّ اللون الأسود سبب مأساته ومعاناته ،فهو الدّاء الذي لادواءَ له ،إذاً الفخر باللّون لم يكنْ سوى ردُّ فعلٍ على الظّلمِ الواقعِ عليه بسبب هذا اللّون ،وهو يعوّض عن هذا الدّاء بالخُلُقِ الكريم ،وبعده عن الفحشاء ،ويقول أيضاً :[4]

وإنْ كانَ جِلْدي بُرَى أسْـوَداً فَلي في المَكارِمِ عِزٌّ ورتبَةٌ

ولَوْ ضَلّتِ العرْبُ يوْمَ الوَغى لِأَبطالِها كُنتُ للعُرْبِ كَعبَةٌ

هنا يؤكّد على تعويضه لنقصه بالشّجاعة والإقدام ،هذا يدلّ على معاناته من عقدته التي تشكّلت لديه بسبب لونه الذي أورثه الذّلّ ،فكانت الشجاعة والعفّة

[1] المصدر السابق ،ص98 .
[2] ينظر :الشّعراء السّود ،ص34 .
[3] ديوان عنترة بن شدّاد ،ص94.
[4] المصدر السابق ،ص96

،وغيرها من الأخلاق الكريمة هي التعويض عن هذا الذلّ ،فهو بطلٌ وشجاعٌ بسيفه لا بأبيه ونسبه إلى قبيلته، لكن بالرّغم من تصوير نفسه البطل الفرد في القبيلة ،الوحيد المُدافع عنها ،نجده في أبيات أخرى يفخر ببطولة أبناء قبيلته ،فيقول :[1]

للهِ دَرُّ بَني عَبْسٍ لقد نَسَلوا من الأكارمِ ما قد تنسُلُ العَرَبُ

وفي بيتٍ آخر يقول :[2]

فَصَرَخْتُ فيهِمْ صَرْخَةً عَبْسِيَّةً كالرَّعْدِ تَدوي في قُلُوبِ العسكر

هنا يفتخر بالصراخ العبسي القويّ الذي يلقي الهول والرّعب في نفوس الأعداء ،أي بالشجاعة والبطولة العبسيّة ،فينتقل هنا إلى الجماعة فشجاعته مستمدّة من شجاعة بني عبس ،فهو يفخر بقبيلته وبانتسابه لها ،في هذا البيت عودة إلى صورة البطل ضمن القبيلة ،فهو يعتزّ بنسبه لهذه القبيلة هنا .

كان لعنترة رغبة شديدة في إثبات نسبه ،ودليل ذلك قصّة انتزاعه لاعتراف والده به، "وسبب اعتراف والده به ، أنّ بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم ،واستاقوا إبلاً لهم ،فلحقوا بهم فقاتلوهم عمّا معهم ،وعنترة يومئذٍ بينهم ،فقال أبوه: كُرّ يا عنترة ،فقال عنترة :العبد لايحسن الكرّ إنما يحسن الحلابَ والصرَّ ،فقال :كرّ وأنت حرّ ،فكرّ وهو يقول :أنا الهجين عنترة ،كلّ امرئ يحمي حره ،فادّعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه" [3].

إذاً أنكر عنترة معيار النّسب لقومه لأنه كان منبوذاً من القبيلة التي أحبّها مهما فعلت به، يقول :[4]

أُحبُّ بني عبسٍ ولَوْ هَدَرُوا دَمي مَحَبَّةَ عَبْدٍ صادقِ القولِ صابِرِ

[1] المصدر السابق،ص98 .
[2] المصدر السابق،ص253 .
[3] شرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها ،جمعه وصححه الشيخ أحمد الشنقيطي ،دار الأندلس ،ص45
[4] ديوان عنترة بن شداد،ص247

لذلك كان أحياناً يعتزُّ بلونه ،ثمّ يعتبره سبب ذلّه ،ويصور فخره بشجاعته ورمحه وجواده فقط ،لكنّه يفخر أحياناً بقومه ونسبه لهم في أبيات كثيرة أخرى فيقول :[1]

فوارِسُنا بنو عَبْسٍ وإنّا ليُوثُ الحَرْبِ ما بينَ البريَّه

إذاً موقف عنترة من معيار النّسب والشّجاعة نسبيٌّ ومختلف ،فهو تارةً يعتزُّ بلونه وشجاعته ،وتارةً أخرى يعتزّ بنسبه للقبيلة .

كما حفل الشّعر الجاهليّ بالحديث عن المروءة "فهي تمثّل الطابع المميّز للحياة الجاهليّة والسّمة الغالبة على طبائع العرب لأنها مجموعة المثل العُليا الرّفيعة "[2] ،فكم فخرت النّساء بالرّجال من قومهنّ ،وقد اعتقوا كريمةً ،أو فكُّوا حسناء من السّبي ،كقول عمرة بنت دريد[3] :[4]

وَرُبَّ كريمةٍ أعتقتَ منهم وأُخرى قد فكَكْتَ من الوثاقِ

فالسّبي أمرٌ لا تريده المرأة ،فهو عارٌ ومذمّة ،وتبغضه إن تعرّضت له ،وتحثُّ فرسان قومها على إعتاق السّبايا[5] ،فهو بالنسبة لهنّ قيمة إيجابيّة ،لكن تختلف نظرة الشاعرة صفيّة الشيبانيّة[6] فهي تفخر ببطولة بني شيبان وبالمغانم والسّبايا التي حصلوا عليها، تقول :[7]

سَاقَت فوارِسُ شيبانٍ لمعشَرِها خيرُ الصّنائعِ فيها طفرَةُ العَجَمِ

غُنْماً سَبايا من الدِّيباجِ فَرْشُهُمُ والتُّسـتُريُّ وأفنـانٌ من القِسمِ

[1] المصدر السابق،ص124 .
[2] شعر العرب في العصر الجاهلي ،علي الجندي ،ص218 .
[3] عمرة بنت دريد هي بنت دريد بن الصمّة سيّد بني جشم ،من نساء العرب المتقدّمات بالمنزلة ،النّابغات ،ينظر :معجم شاعرات العرب من الجاهليّة حتى العصر الحديث ،ج1 ،جميل منصور ،دار البشائر ،دمشق ،ص83 .
[4] معجم شاعرات العرب من الجاهليّة حتى العصر الحديث ،ج1 ،جميل منصور ،ص84 .
[5] ينظر :شواعر الجاهليّة (دراسة نقديّة) ،رغداء ماردينى ،ص108 .
[6] صفية بنت ثعلبة الشيبانية ينتهي نسبها الأعلى إلى ربيعة بن نزار معد بن عدنان ،ينظر :شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام ،ص54.
[7] شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ،بشير يموت المكتبة الأهلية ،،ط1 ،1934م ،ص12 .

فهي تفخر بغنائم الأبطال من السّبايا ،فهي غنيمة لهم ،فالسّبي عندها قيمة إيجابيّة وبطولة ،على خلاف الشاعرة عمرة التي ترفض سبي النّساء من قبيلتها ،ومن القبائل الأخرى ،فالسّبي للمرأة عارٌ إن كانت من نفس القبيلة ،أو من غيرها .

ويفخر الشعراء بسبي النّساء ،فهو بطولة من بطولاتهم في المعارك ،يقول عامر بن الطّفيل[1] :[2]

بَقَرْنا الحُبالى من شُنوءَةَ بعدمَا خَبَطنا بفيفِ الرِّيحِ نهدا وخثعما

فهو يفخر ببقر بطون السّبايا ،ولا يعدّ إعتاق السّبايا قيمة إيجابيّة ومن المروءة ،بل على العكس .

وقد كان لعمرو بن كلثوم موقف مختلف فهو يرى في سبي النّساء ضعفاً ،فالقوي من يأسر الملوك ،فيقول:[3]

فَآبوا بالنّهابِ وبالسَّبَايَا وَأُبْنَا بالمُلوكِ مُصَفَّدِيْنَا

كَما فخر بعض الشّعراء الجاهليين بعفّتهم ،فالعفّة لديهم من أهمّ الخصال التي يتفاخر بها الإنسان الجاهليّ، فهي دليل على عزّة نفسه وكرامته ،فها هو عنترة لا ينظر إلى ما لا يحلُّ له ،ويحرص على غضّ بصره، فيقول :[4]

وَأَغضُّ طرفِي مَا بَدَتْ لي جارَتي حتّى يُوارى جارَتي مَأوَاها

وإنّي امْرُؤٌ سَمحُ الخَليقَةِ ماجِدٌ لا أَتْبَعُ النَّفسَ اللّجوجَ هَواها

[1] عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري ،من بني عامر بن صعصعة ،فارس قومه ،وأحد شعراء العرب وساداتهم في الجاهلية ،الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج3 ،ص252

[2] ديوان عامر بن الطفيل ،رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري من أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ،دار صادر ،بيروت ،ص118.

[3] ديوان عمرو بن كلثوم ،جمعه وحققه د.إميل بديع يعقوب ،دار الكتاب العربي ،بيروت،ص83 .

[4] ديوان عنترة ،ص28

لكن بالمقابل نجد شعراء لم ينظروا لقيمة العفّة النظرة نفسها ،على العكس ،فقد صوّروا المرأة في غزلهم تصويراً فاحشاً مثل امرئ القيس[1] الذي قال :[2]

سَمَوْتُ إلَيها بَعدَ ما نامَ أهلُها سموّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ

فَقَالَتْ سباكَ اللهُ إنّكَ فاضحي ألسْتَ ترى السُّمّار والنّاس أحوالي

لم يفكّر امرؤ القيس في عادات مجتمعه وتقاليده ،ولم يهتمّ للقيم التي كان يمجّدها المجتمع القبليّ ،بل كانَ متمرّداً على تلك القيم والتّقاليد ،كان يفكّر خارج نظام القبيلة، وقيمها السّائدة[3].

وعندما جاء الدّين الإسلامي أكّد على أهميّة ربط الشّعر بالوظيفة الأخلاقيّة ،وشدّد على أهميّة ضبط الشّعر وجعله أداة لتهذيب المجتمع ،ونشر القيم والأخلاق الحميدة التي كانت موجودة في المجتمع الجاهليّ ،وأكّد أهميّتها الدّين الإسلامي كالصّدق ،والمروءة، والعفّة ،والأمانة ،والكرم ..وغيرها من الأخلاق الحميدة ، كما ظهرت قيم ومفاهيم جديدة في الإسلام كالورع ،والتّقوى ،وإعلاء كلمة الحقّ، وإبطال دعوى الخصام، ونشر نور الدّعوة الإسلاميّة ،والدّين الإسلامي[4].

وَرُفِضَ الفخر القبليّ في الإسلام ،وتحوّل إلى الفخر بالأمّة الإسلاميّة ،واحتلّ الفخر و الحماسة مساحة واسعة في شعر الفتوح الإسلاميّة ،الّذي صوّر فيه الشّعراء شدّة القتال وانتصارات المسلمين ،وخيرُ الشّعراء المفاخرين والمدافعين

[1] امرؤ القيس (130-80ق.هـ) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ،من بني آكل المرار ،أشهر شعراء العرب على الإطلاق ،يمانيّ الأصل ،مولده بنجد ،ج2 ،ص11 .

[2] ديوان امرئ القيس ،اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوي ،دار المعرفة ،بيروت ،ط2 ،2004م ،ص137 .

[3] ينظر : نظرية الأدب والمتغيرات ،د.جودت إبراهيم ،ص660 .

[4] تاريخ الأدب العربي ،شوقي ضيف ،ص17،15 .

عن الدّعوة الإسلاميّة كعب بن مالك[1] ،فقد فخر بانتصار المسلمين يوم بدر فقال :[2]

عجبتُ لأمـرِ اللهِ واللهُ قـادِرٌ على ما أرَادَ ،ليـسَ للهِ قـاهِر

قضى يومَ بدرٍ أنْ نلاقي معشَراً بغَوا وسبيل البغي بالنّاس جائر

وقد حشدوا واستنفروا من يليهم منَ النّاس حتّى جمعُهُم مُتكاثِر

وفينا رسولُ اللهِ والأوسُ حوله له معقِل منهم عزيز وناصِـرُ

فلمّا لقينـاهُمْ وكلٌّ مجـاهد لأصحابه مستبسِلُ النّفسِ صابر

شهدنا بـأنَّ الله لا ربَّ غيـره وأنَّ رسول اللهِ بالحقِّ ظاهِـر

فخر كعب بن مالك بنصر المسلمين لأنه نصر على الكفر وإعلاءً لكلمة الحقّ ،وراية الإسلام وفخره هذا بيان لشجاعة المسلمين ،ورمزٌ لوحدتهم وقوّتهم ضد المشركين ونصر للدّعوة الإسلاميّة والدّفاع عن العقيدة ونشر الإسلام بين النّاس ،ويمكن القول أنّ فخر كعب بن مالك كان تجسيداً حقيقيّاً لقيمة الفخر في الإسلام ،استخدم معانٍ وتراكيب من روح الدّين الإسلامي ،وفخر بإعلاء كلمة الحقّ وبنصر الدّعوة الإسلاميّة ،كان فخره صادقاً مُعبّراً عن عقيدته ،وتحوّل فخره من الرّوح القبليّة إلى روح الجماعة الإسلاميّة.

إذاً لم يتمكّن جميع شعراء الجاهليّة من الالتزام المطلق بالقيم النبيلة في مجتمعهم لأنّ الشّاعر إنسان، والإنسان يعيش في صراعٍ مع نفسه ،ومع من حوله فبعضهم التزم القيم النبيلة في مجتمعه وصوّرها في شعره ،وبعضهم تعامل مع الشّعر كسلعة ماديّة يتكسّب منها ،فكانت القيم تتبدّل وتتغيّر في شعره، وبعضهم نظر للشعر بأنّه قطعة فنيّة جميلة

[1] كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري السَلَمي الخزرجي :صحابي ،من أكابر الشعراء ،من أهل المدينة ،اشتهر في الجاهليّة ،وكان في الإسلام من شعراء النبي(ص)، وشهد أكثر الوقائع ،ينظر :الأعلام ،خير الدين الزركلي ،ج5 ،ص228 .

[2] ديوان كعب بن مالك ،ص200

لايهمّ فحواها إن كان خيراً أم شرّاً ،المهم جمال الصّور والتراكيب وما تبعثه في النّفس من أثر جميل ،ومنهم من كان شعره مرآةً تعكس حالته النفسيّة وأزماته التي تراكمت في نفسه عبر مراحل حياته .

وجاء الإسلام فضبط الشّعر ،وأثّر الدّين الإسلامي على الشّعراء ،لكنّ هذا التأثير لم يكن كلّيّاً ،فبعضهم تأثّر به وأدرك ضرورة ربط الشّعر بالوظيفة الأخلاقيّة وأهميّة تصوير القيم النبيلة في الشّعر ،القيم التي جاء بها الوحي وأكّد عليها .

إنَّ قيماً كثيرة كانت موجودة في الجاهليّة ،أكّد عليها الإسلام وحضّ على الالتزام بها ،لكنّ هذه القيم لم يكن هناك إلزاماً للشعراء بتصويرها [1]في شعرهم في الجاهليّة ،كما في الإسلام ،فلم يعد يشفع لشعر الهجاء جمال صوره وتراكيبه مادامَ فيه قذفٌ وذمٌّ، ومهما كان المديح جميلاً وقويّاً فنيّاً ولغويّاً هو شرّ إذا دخل في المبالغة والنّفاق ،والفخر الذي يعتمد على العصبيّة القبليّة ويثير النّعرات يدخل في باب الشّرّ أمّا إذا كان في سبيل الدّعوة والأمّة الإسلاميّة ولايثير العصبيّة فهو خير وجميل ،والشّعر الذي يحرّض على الثأر مرفوض أيضاً عند بعض الشعراء الجاهليين لما فيه من خراب ودمار .

وهذا الجدول سيذكر بعض القيم النسبية التي مرّت معنا في متن البحث .

القيمة	في العصر الجاهلي	في العصر الإسلامي
الأخذ بالثأر (قيمة اجتماعيّة)	إيجابيّة عند بعض الشّعراء مثل عنترة وقيس بن الخطيم. وسلبيّة مرفوضة عند زهير بن أبي سلمى .	قيمة سلبية غير محبّبة في الإسلام ،رفض الإسلام التحريض عليها.
الصّدق (قيمة أخلاقيّة)	جاءت نسبيّة الصّدق في عدم التزام بعض الشّعراء به في شعرهم ،فمنهم من اتّخذه سلعة ماديّة كالأعشى والنّابغة ،والماديّة تخدم النّسبية ،ومنهم من التزم الصّدق	أكّد الإسلام على الصّدق في الشّعر ،والتزم به كثير من الشّعراء كعبدالله بن رواحة ،ومنهم من لم يلتزم به كالحطيئة .

	في شعره كالخنساء وأخيها صخر.	
الوفاء (قيمة أخلاقيّة)	إيجابيّة عند بعض الشّعراء كزهير بن أبي سلمى ،وسلبيّة عند قيس بن الخطيم الذي أدرك ثأره بالغدر	من أهمّ القيم الإيجابيّة التي أكّد عليها الإسلام لكن لم يلتزم كلّ الشّعراء بها ،فقد كانت سلبيّة عند النجاشي .
العمل (قيمة اجتماعيّة)	إيجابيّة إذا كان العمل قتالاً وحروباً ،وسلبيّة إذا كان غير ذلك كالزراعة والتجارة عند بعض شعراء البادية كالأعشى وعمرو بن كلثوم. وقيمة إيجابيّة عند أهل الحضر الذين امتهنوا هذه الأعمال .	العمل قيمة إيجابيّة في الإسلام إذا كان يرضي الله عزّ وجلّ ،وإلّا فهو قيمة سلبيّة
العفّة (قيمة أخلاقيّة)	إيجابيّة عند بعض الشعراء كعنترة ،وسلبيّة وغير مهمة عند امرئ القيس	من أهمّ القيم التي أكّد عليها الإسلام ،وعلى التزامها في الحياة وفي الشّعر ،ولكن لم يلتزمها جميع الشّعراء وهذا مانجده في الغزل الفاحش .
النّسب والولاء للقبيلة	إيجابيّة عند بعض الشّعراء مثل عمرو بن كلثوم ودريد بن الصمّة ،وسلبيّة عند بعضهم كعروة بن الورد ،وعند عنترة فهي تارةً قيمة إيجابيّة ،وتارةً أخرى قيمة سلبيّة .	قيمة سلبيّة مرفوضة في الإسلام ،وقد التزم بعض الشّعراء بالفخر بالأمّة الإسلاميّة كحسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة .
الحلم والإحسان قيمة أخلاقيّة)	قيمة سلبيّة عند بعض الشّعراء الجاهليين ،فهم اعتبروا أنّ الحلم والإحسان من صفات الضعفاء كعمرو بن كلثوم وعند بعضهم قيمة إيجابيّة كزهير بن أبي سلمى.	قيمة إيجابيّة في العصر الإسلامي، بل من أهمّ القيم السّامية التي دعا إليها الإسلام ،والتزم بها بعض الشّعراء ولم يلتزم بها آخرون كقريط بن الأنيف الذي عدّها قيمة سلبيّة

		،وعيّر قومه بها .
السّلبي (قيمة اجتماعيّة)	إيجابيّة عند بعض الشّعراء مثل صفيّة الشيبانيّة وعامر بن الطفيل ،وسلبية عند عمرة بنت دريد وعمرو بن كلثوم .	قيمة سلبيّة في العصر الإسلامي.

فالقيم نسبيّة متغيّرة سواء في العصر الواحد أم أكثر من عصر وذلك مرتبط بالدوافع النفسية وبالبيئة التي ينشأ فيها الإنسان والطبيعة المحيطة والعادات والتقاليد الاجتماعيّة ،والتعاليم الدينيّة، التي أسهمت في جعل تلك القيم غير ثابتة ،بل في تغيّر وتطور مستمرين يتناسب مع كل عصر.

نتائج البحث:

1- القيم نسبية عند الشاعر نفسه, فنظرة الإنسان لقيمة ما تتغير باختلاف دوافعه النفسية واحتياجاته عبر مراحل حياته.
2- القيم نسبية من شاعر إلى آخر في البيئة الواحدة فما هو عمل بطولي عند الشعراء الرجال مثلاً ليس بالضرورة أن يكون عملاً بطولياً عند الشواعر.
3- القيمة متغيرة ومتبدلة بين عصر وآخر, هناك الكثير من القيم كانت موجودة ومهمة في العصر الجاهلي وقضي عليها واختفت في العصر الإسلامي.
4- هناك تبدلٌ وتغيرٌ في الدوافع التي تجعل الإنسان يغير نظرته وسلوكه اتجاه قيمة ما.
5- تأثر الشعراء الكبير بصيغ ومعاني القرآن الكريم ودخول مصطلحات جديدة إلى الشعر العربي.
6- اختلاف شكل المقدمة الطللية في العصر الإسلامي.
7- التحول من مفهوم الفخر القبلي والانتماء للقبيلة إلى مفهوم الأمة الإسلامية.
8- تأثر الشعر العربي بشكل كبير بالدين الإسلامي الجديد وبالتعاليم الجديدة .

القرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

- الأحكام القيميّة الإسلاميّة لدى الشباب الجامعي (رؤية تربوية)،عبدالغني عبّود ،دار إحياء التراث الإسلامي ،المدينة المنورة ،المملكة العربية السعودية .
- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ،بطرس البستاني ،الهنداوي ،د.ط ،د.ت.
- الأعلام ،خير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،1986م
- الأغاني ،أبي الفرج الأصفهاني ،تح:د.إحسان عباس ،د.إبراهيم السّعافين ،د.بكر عباس ،دار صادر ،بيروت، ج15 .
- الأمالي في الأدب الإسلامي ،أ.د.ابتسام الصفّار ،دار المناهج ،عمّان .
- الانتماء في الشعر الجاهلي ،فاروق إسليم ،منشورات اتحاد الكتّاب العرب .
- تاريخ آداب العرب ،مصطفى صادق الرافعي ،مكتبة الإيمان ،المنصورة ،مصر .
- تاريخ الأدب العربي ،شوقي ضيف ،دار المعارف ،القاهرة ،مصر ،ط7 ،1960م .
- التربية الأخلاقية الإسلاميّة ،د.مقداد يالجن،دار عالم الكتب ،الرياض ،ط1 ،1992م.
- التطور والنسبية الأخلاقية ،د.حسام محي الدين الألوسي ،دار الطليعة ،بيروت ،ط1 ،1989م .
- تعدّدية القيم ما مداها وماحدودها ،طه عبدالرحمن ،طبع كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة ،مراكش ،ط1 ،2001م.
- جدلية القيم في الشعر الجاهلي (رؤية نقدية معاصرة دراسة) ،جمعة بوبعيو ،منشورات اتحاد الكتّاب العرب ،دمشق ،سوريا ،د.ط ،2001م .

- جمهرة أشعار العرب ،محمد بن أبي الخطاب القرشي /ت الهاشمي.
- حديث الأربعاء ،طه حسين ،ج1،دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،1974م.
- ديوان الأعشى ،شر وتح: محمد حسين ،مكتبة الآداب ،مصر ،2012م
- ديوان امرئ القيس ،شر :عبدالرحمن المصطاوي ،دار المعرفة ،بيروت ،لبنان
- ديوان حسّان بن ثابت شر:عبدأ.مهنا ،دار الكتب العلميّة ،بيروت ،لبنان ،ط2، 1994م.
- ديوان عامر بن الطفيل ،رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ،من أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ،دار صادر ،بيروت ،لبنان.
- ديوان عروة بن الورد ،شر:ابن السّكيت ،حققه عبد المعين الملوحي ،مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي .
- ديوان عمرو بن كلثوم ،جمعه وحققه د.إميل بديع يعقوب ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان .
- ديوان عنترة العبسيّ ،تقديم وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي ،ط1 ،مكتبة القاهرة ،مصر
- ديوان قيس بن الخطيم ،تح:د.ناصر الدين الأسد ،دار صادر ،بيروت ،2009م
- ديوان كعب بن زهير ،شر وتح:علي فاعور دار الكتب العلمية ،بيروت ،1997م .
- ديوان كعب بن مالك ،دراسة وتحقيق سامي العاني ،مكتبة النهضة ،بغداد ،ط1.
- ديوان النابغة الذبياني ،تح وشر:كرم البستاني ،دار صادر ،بيروت .
- ديوان النجاشي قيس بن عمرو، تح:صالح البكار ،الطيب العشاش ،سعد غراب ،مؤسسة المواهب ،بيروت ،لبنان ،ط1، 1999م

- رجال المعلّقات العشر ،مصطفى الغلاييني ،المكتبة الشاملة ،بيروت ،لبنان .
- ديوان زهير بن أبي سلمى ،تح:حمدو طمّاس ،دار المعرفة ،بيروت ،ط2 ،2005م
- شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام ،جمعه ورتبه بشير يموت ،المكتبة الأهليّة ،بيروت .
- شاعرات العرب من الجاهليّة حتى العصر الحديث ،ج1 ،جميل منصور ،دار البشائر ،دمشق.
- شرح ديوان الحماسة ،أبو تمام الطائي ،تح:محمد حسن نقش ،دار العرب الإسلامي ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،2004 م.
- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ،جمعه وصححه الشيخ أحمد الشنقيطي ،دار الأندلس .
- الشعر أيام العرب ،عفيف عبد الرحمن ،دار الأندلس ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،1984م
- الشعر الجاهلي ،خصائصه وفنونه ،يحيى الجبّوري ،دار مجدلاوي عمان .
- شعر العرب في العصر الجاهلي ،علي الجندي ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،مصر ،ط1
- الشعر والشعراء ،ابن قتيبة ،تح وشر:أحمد محمد شاكر ،ج1 ،دار المعارف ،القاهرة .
- الشعراء السّود وخصائصهم في الشّعر العربي ،د.عبده بدوي ،1998م
- شواعر الجاهلية دراسات نقديّة ،رغداء ماريني ،دار الغار ،دمشق ،سوريا ،ط2 ،2008م .
- الطريق إلى المدائن ،أحمد عادل كمال ،الشركة الدولية للطباعة ،مدينة 6أكتوبر ،القاهرة ،مصر ،2004م

- العمدة ،ابن رشيق القيرواني ،تح :النبوي عبدالواحد شعلان ،القاهرة ،مصر
- الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ،هنتر ميد، تر :فؤاد زكريا ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ،القاهرة ،ط1 ،1969م.
- قراءات في علم الجمال ،محمد عزيز نظمي سالم ،ج1 ،مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية ،مصر ،1996م
- لسان العرب ،محمد بن مكرم علي جمال الدين أبو الفضل بن منظور ،دار صادر ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،1968م.
- المعجم الفلسفي ،مجمع اللغة العربيّة ،الهيئة العامة للمطابع الأميريّة ،القاهرة ،1983م.
- المعجم الوسيط ،مجموعة من الباحثين ،مجمع اللغة العربية ،مكتبة الشروق الدوليّة ،القاهرة ،مصر ،ط4 ،2004م
- مقدّمة في علم الأخلاق ،محمود حمدي زقرق ،دار القلم ،الكويت ،ط3 ،1983م.
- منهجية البحث والتحقيق ،د.جودت إبراهيم ،منشورات جامعة البعث ،2007م
- نسبيّة النصوص والمعرفة الممكن والممتع ،تقريرات الشيخ معتصم سيّد أحمد .الشيخ الحسيني أحمد السّيّد ،سلسلة محاضرات ألقاها آية الله السّيّد مرتضى الحسيني الشيرازي ،دار المحجّة البيضاء ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،2012م
- نظرية الأدب والمتغيرات دراسات ،جودت إبراهيم ،دار تنوير للتنضيد والطباعة ،حمص ،سوريا ،ط1 ،1996م
- نظرية نقد الشعر العربي ،د.جودت إبراهيم ،تنوير للخدمات الطباعيّة ،حمص ،1994م
- نقد الشعر ،قدامة بن جعفر ،تح :عبدالمنعم خفاجي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان.

- الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ،محمد حسين ،مكتبة الآداب ،القاهرة ،مصر.
- وحي القلم ،مصطفى صادق الرافعي ،راجعه واعتنى به د.درويش الجويدي ،ج1 ،المكتبة العصيرية ،بيروت
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ،القاضي الجرجاني ،تح وشر :محمد أبو الفضل إبراهيم ،علي محمد البجاوي ،مطبعة عيسى الحلبي ،القاهرة ،مصر ،ط1 ،1966م
- الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام ،فؤاد مرعي ،دار الأبجديّة ،دمشق ،سوريا ،ط1 ،1989م

المجلات والأبحاث :

- استنباط القيم في حقل علمي ،د.فتحي الملكاوي ،بحث منشور في كتاب القيم في الظاهرة الاجتماعية ،تحرير نادية مصطفى ،سيف الدين عبدالفتاح ،دار البشير ،مصر ،ط1 ،2011م .
- التكسّب بالقصيدة العربيّة ،قراءات نقديّة ،صبيحة شبر ،مجلة المثقّف ،ع5791
- الهجاء في الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي نظرة في طبيعة الفن وتراوحه بين القبيلة والإسلام والسياسة ،د.عبدالعزيز بن محمد الخويطي.